الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منيرة السبيعي

ظلال الوأد

رواية

ظلال الوأد

ظلال الوأد

رواية

منيرة السبيعي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0105-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

استناني إلى القلب الحنون الذي لم يغادرني
برغم رحيله..

من علياء شرفته السماوية يهطل وصلاً، يُسقي حنيني،

يهمس سواسياً: الموت لا يعني الغياب..

لوالدي الحبيب، كل الحب والعرفان.

(1)

في الفسحة الواقعة قبالة مكتب استقبال جناح النساء والولادة بمستشفى الصحة العام، حيث نصبت طاولة مستطيلة صفت عليها مجموعة من الحواسيب المحمولة يستخدمها أفراد الطاقم الطبي إذا ما عرجوا على مريضات الجناح، وحيث تتواجد قرابة الخمسة أو ستة كراسي تحيط بالطاولة، جلست أنا وأسرار متقابلتين نتجاذب أطراف الحديث في محاولة لقتل باقي الوقت الذي يفصلنا عن نهاية الدوام. كان الوقت بطيئاً جداً، خاصة واليوم هو الأربعاء بداية عطلة آخر الأسبوع.. ناولت أنجيلا رئيسة التمريض في الجناح نسخة من أسماء المريضات المغادرات اللاتي لا زلن في غرفهن إذ لم يحضر أحد لإخراجهن من المستشفى. شكرتني، وانصرفت لعملها بينما بقيت وأسرار نجتر بعض الأحاديث، وهي تعبئ آخر استمارة في يدها بعد أن انتهت من الإشراف على نظافة غرف جناح الولادة. تعمل أسرار مشرفة نظافة في ذات الجناح الذي أعمل فيه كاتبة، جمعني وإياها عمر بكامله وذكريات تشاركنا فيها وقت جيرتنا، ثم بعد أن عملنا معاً في ذات المستشفى.

صمتت أسرار قليلاً بعد أن ثرثرت في أشياء كثيرة عادية، وأخذت تتأملني كعادتها عندما تهم بالإيحاء بأنها ستقول شيئاً مهماً، محاولة منها لجذبي أكثر لما ستقوله، ثم أردفت:

تصوري.. بعد انقطاع سنين عادت هدى للتواصل مع البندري!

البندري أخت أسرار الكبرى كانت أقرب الصديقات لأختي هدى

في فترة شبابهما المبكر، عندما كنا نقطن في حي الشميسي مجاورين لمنـزل أسـرار وأسـرتها.. هنـاك أزهـرت براعم رقيقـة لحكايات ملونة رسـمتها كلاً من البندري وهدى خلف جدران المنازل المتلاصقة في ذلـك الحـي العتيـق.. كنت شـاهدة على بعـض ملامح تلك الحكايات السـاخنة، أما البعض الآخر منها فسـيق لي من خلال الأحداث التالية والأشـخاص الآخـرون اللذيـن كانـوا يحيطـون بهما.. أذكر هدى وهي تمسك بيدي وتأخذني إلى حيث محل الخياط الباكستاني محمد خان، وأكاد أراهـا ماثلـة أمـام أعيـن ذاكرتـي تخـرج قطعة قماش ملونة يغلب عليها اللون البرتقالي، تتناثر منها قصاصات زري رقيقة تتساقط متراقصة على الأرض وعلى الرف الذي يفصلنا عن داخل محل الخياط. أمرر كفي الصغير على اللوح أمسح تلك القصاصات وأتلفت كي أتأكد من أن لا أحداً يراني ثُم أمسـح بكفي على أطراف فسـتاني القطني وأبقى أحدق في الزري وهو يلتصق بسطح ثوبي ويلمع جراء انعكاس أشعة الشمس عليه.. ثم يتساقط بعدها تباعاً إذا ما تحركت، يتراقص بين أنامل نسمات الهواء الخفيفة ليستقر على الأرض عاجزاً عن مقاومة جاذبيتها الطبيعية. أتبسـم مغتبطة لجمال ذلك البريق، وأعاود جمع المزيد من ذلك السحر البهي اللمعة.. تلمحني هدى وأنا أكرر المسح على ثوبي فتنهرني قائلة:

«يووه بتوسخين ثوبك يا آمنة».

وتمسـك ذراعـي الصغيـر لتطبع عليـه قرصة خفيفة أتوقف بعدها عما كنت أفعله بينما يبقى بريق الزري متراقصاً في مخيلتي البكر إلى الأبـد، لا تمحـوه الأيـام بمرورهـا. يصلنـي من البعيد صوت ضحكات هدى والبندري وهما تفتحان رسـالة وضعها أحد الشـبان في الكيس الذي تركته هدى عمداً على الأرض وهي تحادث محمد خان تشرح

له موديل الفستان الذي سيصنعه لها. يدها كانت لزجة في ذلك اليوم وهي تمسك بيدي في طريق العودة إلى البيت.. كانت متوترة بعض الشيء وتتحدث إليّ في أمور شتى لم تعتد مناقشتها معي، محاولة منها لصرف انتباهي عما يحدث، كسؤالها لي وقتها: وش رأيك في ثوبي الجديد.. حلو؟

بعفوية أجبتها ذلك اليوم: مرة حلو يبرق مثل لمبات العرس. أجابت بحماس وهي تزيد لي كيلة تشتيت انتباهي: سأحضر لك قصاصات من القماش المتبقي لتصنعي منها ثوباً للعبتك. فرحت جداً بوعدها الذي لم تفِ به فيما بعد، وبدا لي بعدها بسنين أن هدى كانت تُشغلني بحديثها ذاك عن أمر الرسالة المسقطة في كيسها البلاستيكي، لا أكثر.

كانت هدى والبندري تقضيان معظم أوقاتهما معاً، في المدرسة صباحاً، ثم في المنزل مساء.. أحياناً تبقى كلاً منهما في بيتها وتتحادثان معاً وجهاً لوجه لا يفصلهما إلا جدار السطح القصير، حيث تضطر البندري لاعتلاء صندوق صفيح يرفعها قليلاً لمستوى طول الجدار، بينما تقف هدى على أطراف أصابع قدميها فتلتقي الاثنتان وجهاً لوجه. كانت المنازل متلاصقة في ذلك الحي العتيق، وكذلك بدت لي الأرواح أكثر قرباً وقتها، على غير ما هي عليه الآن، إذ الجميع منشغلون بشئونهم الخاصة. كنت أنا وأسرار في بداية المرحلة الابتدائية، نقضي بدورنا معظم أوقاتنا معاً.. أسرار كانت الأكثر تواجداً في بيتنا من تواجدي عندهم، حيث تذهب أمها خالة (دواجة) الدلالة في الصباحات ومعظم الأمسيات تدور ببقشتها على المنازل المجاورة تبيع محتويات البقشة من أقمشة وثياب جاهزة التفصيل وسجاجيد صلاة وأغطية قطنية ومكانس قش وغيرها.. بينما تبقى أسرار معي في البيت نلعب بعرائسنا الخشبية

التي صنعناها بأنفسنا.. تلك العرائس الجميلة التي كنا نعدها من عودين خشبيين أحدهما أطول من الآخر، نجعلهما في وضع متقاطع كالصليب فيكون جذع العروسة هو العود الطويل بينما يداها هما العود القصير، ونلصق بأعلى العود الطويل - أعلى الذراعين تحديداً - صور وجوه لشخصيات عامة كنا نجمعها من الأغلفة الورقية لقطع الصابون أو من بعض المجلات القديمة التي تقع في حوزتنا فيكون لدينا إما رجل أو امرأة أو حتى أطفال قاماتهم أصغر قليلاً. نلبسهم ثياب جميلة برّاقة، كلاً حسب جنسه وعمره، ونلف رؤوس الإناث البالغات بقطعة قماش سوداء، تميزها عن الصغيرات اللاتي لا يلزمهن لبس ذلك، بينما تعتلي هامات الذكور، قطعاً قطنية حمراء أو بيضاء اللون كما أعتاد الرجال في بلادي أن يلبسون. نضع اللعب في أي صندوق فارغ ليكون منزلاً لها، بينما نصنع أسرّتها وأثاث منازلها في الغالب من علب عيدان الثقاب الخالية أو كراتين الحلوى المفرغة ونغطيها بقطع الأقمشة التي نجمعها من محلات الخياطين مما تبقى لديهم من قصاصات زائدة.. كانت تلك العرائس الخشبية على بساطتها تدخل إلى قلبي بهجة لا تساويها أي بهجة أخرى حصلت عليها فيما بعد، من خلال العرائس البلاستيكية التي ابتاعتها لي أمي لاحقاً كترضية عندما لمحت افتقادي للعب مع أسرار بعد افتراقنا بسبب انتقال كل من أسرتينا إلى نزلها الجديد.. يومها أصابتني دهشة غير مسبوقة ما أن صارت اللعبة البلاستيكية بين كفي، ورحت أقلّبها في تعجب وإعجاب شديدين.. كانت جميلة جداً، ولها وجهها الخاص بملامحه البارزة.. عينان وأنف وشفتان دقيقتان، حتى حمرة الخدين كانت تشع في أعلاهما وكأنما يجري الدم فيهما حقيقة، بينما كساها شعر بني جميل انشغلت بتضفيره وإعادة فك ضفائره نهاراً بطوله، حتى أني امتنعت عن تغطيته بغطاء

الرأس الأسود القطني خشية أن يغيب عن ناظري ذلك الجمال الحريري الأخاذ.. غير أن تلك الدهشة لم تدم طويلاً، فما فائدة اللعبة الجميلة إذا لم أجد من يشاركني فيها.. كنت قد ألقيت بصندوق لعبي الخشبية في الخارج ما أن ابتاعت لي أمي اللعبة الجديدة، ولكني عدت راكضة إلى حيث ألقيت به، أبحث عنه آملة أن أجد جزءاً من فرحي القديم لا يزال يسكنه.. لكني لم أعثر عليه، كان قد تلاشى، ربما كانت طفلة أخرى تحيك به ثياب بهجتها الموعودة..

نفحة هواء معطرة هبت عليّ من تلك الذكرى القديمة تحمل معها رائحة أزهار الريحان التي كانت أمي تزرعها في المربّع الصغير المقام في مقدمة منزلنا الصغير القديم، حيث لا حديقة ولا مساحات خارجية في المنزل عدا تلك البقعة المتواضعة المكونة من مساحة متر ونصف في مترين تقريباً، تملؤها أمي بزهور الريحان وبقليل من البقدونس والنعناع والجرجير، تستظل تلك المجموعة بظل شجرة سدر طويلة، وارفة بما يكفي لحفظ مزروعات أمي تلك، وبعضاً من ذكريات تناثرت أسفل ظلها تحوي صندوق عرائسي الخشبية، وعلبة معدنية اسطوانية الشكل مفرغة ومحكمة الغلق يتوسط غطائها ثقب صغير بالكاد يسمح بمرور حبات الخرز التي نتبادلها أنا وأسرار أثناء لعبنا لعبة (الدبق)، وخلف السور الأمامي الوحيد الواقع في مقدمة ذلك المنزل الشعبي، حيث الجهات الثلاث الباقية ملتصقة بالبيوت الأخرى،كنا نقيم نحن الأربعة.. أمي وهدى أختي الكبرى وسلطان الذي يصغرها بسنة ويكبرني بقرابة التسع سنوات.. وأنا آمنة التي أتت بالمصادفة نتيجة عودة أمي لأبي بعد انفصال دام سنين عدة، ليزرعني في رحم الحياة ويرحل بعدها بسنوات قليلة إلى الآخرة.

هناك في بيت الشميسي كانت الأشياء أجمل، والألعاب أروع،

والضحكات أصدق، وبراءتي أكثر نصاعة، وهدى الملونة أكثر إشراقاً وفرحاً.. هناك على أنغام طلال مداح الدافئة وهو يشدو بأغنيته (عطني المحبة..كل المحبة.. عطني حياتي) دلفت هدى لتقع في شباك الحب الحالم.. وهناك قُبر ذلك الحب بتآمر صامت.. هناك أيضاً كان آخر طفولتي المبكرة التي لم يشأ لها القدر لها أن تبقى باسمة أكثر مما كان.

غادرنا حي الشميسي بعد قرار هدم تلك البيوت بسبب إعادة تخطيط الشوارع، خرجنا ببعض المال الذي بالكاد مكّننا من شراء منزل صغير في حي الفاخرية، وسط الرياض، الحي الذي يتوسط عليشة والناصرية والمربع.. منزل لم يكتمل بناءه بعد، مكوّن من دور واحد فقط، وغرفة وحمام في السطح. قال أخي سلطان لأمي حينها بأن المال لا يكفي لشراء منزل بدورين، وصدقته هي دون أدنى شك.. فانتقلنا إلى البيت الجديد، بينما انتقلت أسرة أسرار إلى فيلا كبيرة بحي الشفاء، جنوب الرياض، وشيئاً فشيئاً تلاشت العلاقات بين أسرتينا إلا من بعض زيارات متباعدة وموسمية كانت تقوم بها خالة دواجة لمنزلنا بحكم الجيرة السابقة، دون نية البيع من بقشتها التي لا تفارقها أبداً، فبرغم تحسّن الحال المادية لأسرة الخالة دواجة وانتقالهم لفيلا حي الشفاء الجديدة إلا أنها لم تتوقف عن مزاولة مهنتها كبائعة متجولة، وكأنما هي جزء من هويتها لا يمكنها التخلي عنه أو تغييره أبداً. يحدث أحياناً أن تزورنا وتبقى مع والدتي ساعات طويلة دون أن تفتح بقشتها حتى، ترتاح لوجودها معها فقط، أما البيع فيبدو وكأنه لم يكن سبباً للزيارة. أنا بقيت حتى وقت قريب منبهرة بسوقها الصغير المتنقل، أتسلل دائماً وأفتح بقشتها بُغية ابتياع جزء من دهشة الماضي التي كانت تنتابني ما أن تصف لنا خالة دواجة بضاعتها السحرية تلك.

تنبهت من ذكرياتي وقد غادرت أسرار الجناح على الأغلب

انصرفت للمنزل بعد نهاية الدوام، بينما توجهت أنجيلا لغرفة إحدى المريضات. عرجتُ على قسم العناية المركزة للاطمئنان على حالة أخي سلطان، بناء على طلب وإلحاح من والدتي، وكليّ غضب منها ومن عنايتها واهتمامها المبالغ فيه بأخي.

في غرفة الاستراحة المقابلة للعناية المركزة جلست أنتظر حضور السائق (رفيق) ليقلني إلى المنزل بعد أن سألت عن حال سلطان.. ورحت أتأمل في مفارقات الحياة.. ما الذي يميّزني عن كل هؤلاء الممددين في الأسرّة البيضاء؟ أجساد نصف حيّة، وأخرى ميتة مع وقف التنفيذ.. ما الذي يفرقني عنهم يا ترى؟ لا أرى فرقاً جلياً! روحي دائمة المفارقة لجسدي، تلهث خلف آمال ضاعت من سنين، وأُخر تطاردها تستحثها القدوم..

ميتة دون أن أدري، إذ لا تستطيع روحي الاستقرار في بدني لدقائق عِدّة، منهكة، تفر مني روحي رغماً عني، تنساب من أطراف جسدي دون أن أدري، مُحلّقة خلف هاجس بعيد، فما أن أُفيق على غيابها، حتى أُجاهد لاستعادتها مرة أخرى، وما أن أفعل حتى تتخطفها مني ذكرى أخرى بعيدة، فأروح دون أن أدري أُلاحقها، مفارقة جسدي.. فلا أعود أملك القدرة على التواجد الكامل في رحم اللحظة.. مبعثرة تتخطفني الفكر، وكأنها لصوص تسلبني حقيقة التواجد. التواجد الذي يعني أن أكون هنا بكاملي، روحاً وجسداً، وليس مجرد خيال مآتة يرتدي جسداً لا حياة فيه.

أنا إذاً أحد أولئك المغيبين الممددين أمامي. لا فرق بيني وبينهم سوى بإمكانية الحركة والتنقل فقط. حكايتي نبتت في أرض الخوف منذ زمان بعيد، حيث لا شيء سوى المجهول..وها هي تُكمل مسيرتها كما شاء لها القدر أن تكون.. هنا، أمام غرفته في المستشفى.. أرصد

عدد نبضاته المُتبقية له في رصيد الحياة. كل نبضة تضخ معها كمٌ من القلق والتوجس.. وتقذفني باحتمالات متساوية.رُبما يشفى ويعيش.. وربما يقضي فيموت! وكم تمنيت بل وصليت ليحدث الاحتمال الثاني سريعاً..

* * *

(2)

على مقعد جانبي قبعت مكوّمة على ذاتي، أُقلّب الاحتمالات ونتائجها.. هواجس شتى تتطاير كفراشات نور ما تلبث أن تحترق إذا ما لامست سعير فكري المشتعل حيرةً، فكري الذي لا يدري هل يُقدم بالقضاء عليه وإنهاء حياته، أم ينتظر يد القدر لتقوم بالمهمة نيابة عنه؟ تتدحرج الأسئلة منّي تباعاً منسكبة تبحث عن نصفها الآخر.. الأجوبة التي لم تقو على بث روح الأمل في حنايا نفسي القلقة. يفرّ السؤال الحتمي من ذهني المشوّش مُتسربلاً بثياب التفكير: ما الذي سيحدث لو تسحبت بهدوء وفصلت جهاز التنفس الصناعي عنه؟ ليُلجمه السؤال الذي بدا لي أكثر أمناً.. لا بل ماذا لو انتظرت يوماً أو يومين فربما مات دون عناء قتله! جهنمان صغيرتان تتقاذفاني، كلاً منهما تعد باحتراق أخف.. جهنم إقدام لا يعلم قعرها إلا الله، وأُخرى بدت أقل سعيراً فيما لو انتظرت قليلاً لعل الله ينتزع روحه دون أن أتورط في المسألة.

ألحت أمي عليّ للمرور على غرفته وهي لا تدري أو ربما تدري - الأمر سيان لدي- بأني أتمنى أن يعاجلني أحد زملائي بزف خبر وفاته لي، أنتظر نهاية قدرية تأخذه بعيداً عنّي.. تُغيبه لأتحرر من وجوده في نفس دنياي.. منذ الأمس وبالتحديد بعد حادثة دخوله للمستشفى صرت أكثر شجاعة مع نفسي على تمني الموت له. في الماضي لم أكن أجرؤ على الحلم، ولكن الآن وبعدما حدث له ما حدث صرت أكثر جرأة على محادثة نفسي على الأقل باختفائه. لعل ضعفه أمدني

بالقوة! كم صليّت سراً كي يرحل، ويبدو أن الله استجاب لصلواتي وأنه لم يبق وقت طويل حتى أرى أمنيتي تتحقق..آه لو لم تنقذه أمي، ليتها لم تفعل.. ليتها تركته يقضي في حينها.. لِمَ اتصلت طالبة المساعدة ذلك اليوم.. بل لِم استجبت أنا لطلبها وحضرت لأنقله للمستشفى حيث أعمل.. كان على وشك الموت وقت وصل للمستشفى، نزيف حاد في الكبد والمعدة، جراء تعاطي جرعة زائدة من الكحول، وبعض المواد المخدرة التي دأب على تناولها.. كان قد قال لأمي بأنه أقلع عنها، وهي بقلب أم آملة صدقته.. لكنه لم يفعل، فقط تحول إلى زيادة الحرص في إخفاء الأمر عن الجميع.. عدا زوجته هند على ما يبدو كانت تعرف بتفاصيله كلها.. هند التي غادرتنا قبل أيام قليلة.. قالت بأنها لم تعد تستطيع العيش معه.. ورحلت بكل بساطة تحمل معها ولديها الصغيرين..

قفز سؤال إلى ذهني بمجرد تذكر هند زوجة أخي: هل لهجرها له علاقة بما حدث له؟ وهل كان ينوي الانتحار فعلاً أم انه أفرط في التعاطي فقط دون نيّة قتل نفسه؟ لا أدري.. لا أحد يدري كيف يفكر سلطان، فقد صار قليل الكلام، خاصة في السنة الأخيرة، وبعد وفاة صغيرته بسمة التي فجعتنا برحيلها المفاجئ عن عمر سبع سنوات.. بعد موتها صار أكثر عزلة مما قبل، وأقل حياة.. حتى لكأنه قد لحقها بالفعل غير أن جسده لا يزال عالقاً في برزخ الوجع ينتظر استكمال الرحلة واللحاق بتلك الروح الفارّة..

أيقظتني من هواجسي أنجيلا.كانت قد أنهت عملها قبل قليل.. قالت بأنها مرت على غرفة سلطان لترى كيف حاله قبل انصرافها إلى وحدتها السكنية.. سألتني لِم أجلس هنا، فأخبرتها بأني أنتظر وصول السائق، ليقلّني إلى البيت..جلست بجانبي وقالت وهي تضغط على

يـدي برفـق: عزيزتي..لـم أجـد وقـت للتحـدث إليـك بمفردنـا.. لعلي أستطيع التحدث إليك الآن؟

أشرت لها أن نعم، فتابعت: يبدو أن الأقدار تخط لك خطاً جديداً يا آمنة.. فهذا أخوك راقد في العناية المركزة بين الحياة والموت، وهذه أوراق ابتعاثك على وشك أن تنتهي.. فكري بالأمر جدياً. فرصة كهذه لن تأتيك مرتين.. إن مات تكونين قد تحررت من قبضته، وإن عاش فصدقيني الأمور لن تعود كما كانت أبداً.. هذه زوجته قد غادرته ويبدو أنها أيضاً قد اكتشفت شيئاً لا يجعلها قادرة على البقاء معه.

أنجيلا لم تكن رئيستي في العمل فحسب، بل كانت بمثابة أخت لي.. احتوت ما لم يستطع غيرها احتواءه. فبسبب شعوري بالذنب والمسئولية، وخوفاً من الفضيحة في وسط لا يرحم ولا يُفرّق بين الضحية والجلاد إذا ما كان حكماً، التزمت الصمت سنيناً تجاه ما حدث لي في صغري، ما أدى إلى نجاة الجميع من حِمم بوحي، حتى أسرار أعز صديقاتي، وجارة الطفولة، لم أجرؤ على إفشاء سرّي لها بالرغم من قُربنا من بعض. وحدها (أنجيلا) الغريبة لطخها الوجع.. لما شاء القدر بعد سنين أن يقذف بها على بُركان الجُرح الساكن، فتنكؤه بلا قصد.. لينفجر حمم قيح تصب في مسامعها..

يجمعني وأنجيلا مكان العمل وعِشرة سنتين تقريباً.. كانت الأقرب لي بين الممرضات، والأقرب للمرضى بحنانها وعنايتها.. حظيت بثقة الإدارة، بالرغم من قلة سنين خدمتها، فصارت رئيسة للتمريض.. نعمل معاً في جناح النساء والولادة.. اخترته مكاناً لي من بين باقي الأجنحة محتمية به من ألم المرضى في الأقسام الأخرى.. فيه ليس إلا مواسم الفرح غالباً.. نساء يحضرن ليلدن بسمات صغيرة يؤثثن بها أركان حُبهن.. ثُم يُغادرن مُحملات بالياسمين والدعوات..

يندر أن ينمو في أراضيهن عُشب الألم.. عدا وجع الولادة المُعتاد، أو خيبة فقدان جنين لم يشأ الله له مزيداً من الحياة.. وكل هذه الآلام عادية جداً مقارنةٌ بباقي آلام المرضى في الأجنحة الأُخرى.

حدث بعد مخاض إحدى النساء أن أتتني أنجيلا تطلب منّي مُساعدتها مع المريضة بترجمة الكلمات بينهما، كان ذلك في بداية سنتي الأولى في المستشفى، ولأني كاتبة الجناح، فتقتضي مهنتي أن أُترجم اللغة الإنجليزية شفوياً بين المريضات والممرضات الأجنبيات، وقد كانت اللغة الإنجليزية – على عدم إتقاني لها – هي الرحمة التي منّ الله بها عليّ لأرتزق بواسطتها، فليس سوى شهادة ثانوية عامة لا تُسمن ولا تُغني من جوع، توقفت بعدها عن الدراسة، واكتفيت بتبادل بعض الكُتب التي تُعلم اللغة وبعض القصص والروايات مع صديقاتي من بنات الجيران، واللاتي سنحت لهن الفرصة لمتابعة التعلم، وتذوق جديد الحياة. أما أنا فلم أستطع الالتحاق بالجامعة نظراً لعدم توفر المواصلات، وإيماناً من ولي أمري –سلطان – بأن التعليم ليس ضرورة لي، بل أن درجاتي العالية في المواد العلمية لم تشفع لي عنده فتكون دافعاً لموافقته على إكمال دراستي، ولكنها كانت مصدر سخريته منّي، إذ كان يقول لي دائماً:

(هذا اللي انتي فالحة فيه.. الدراسة وبس!)

لم أفهم ماذا كان يُفترض أن أفلح فيه ولم أفعل؟ فقد كنت أعتني بوالدتي، وأُساعدها في شئون البيت، بل أنني كُنت خادمةٌ له، حتى بعد زواجه، أصرّ على أن أبقى في الخدمة، إلى أن أتت الخادمة، وكأنما يخشى أن أرتاح قليلاً وأُفكر في حالي التي رُبما جرت عليه الكثير فيما بعد. لم ينقذني منه سوى اختيار زوجته للانفصال في السكن في الدور العلوي، فتفرغت وقتها للقراءة كُلما رمى لي الحظ بكتاب.

لم أكُن أُدقق في نوع الكُتب، ولا أنتقيها، بل أقبل مستبشـرةٌ بأي هبةٌ تُسقطها لي صديقاتي من مستودعات كُتبهن الخاصة، أو بعض الكُتب التي كُنّ يسرقنها من إخوتهن خِلسةٌ، فأقرأها على عجل وأعيدها لمن أقرضتنـي إياهـا. كانـت الكُتـب هـي النوافذ الوحيـدة المُتاحة لي آنذاك لأتنفس من خلالها وأتواصل مع العالم الخارجي، فأبقيت عليها مُشرعةٌ ما استطعت.

(أحتاجـك مـع مريضـة الغرفـة رقـم خمسـة). قالتهـا أنجيلا ذاك الصباح البعيد، الصباح ذاته الذي شـهد أول بوح لي. أنهيت الأوراق التي كانت بحوزتي واتجهت إلى حيث ذهبت..

(رُبمـا نحتـاج إلـى اختصاصيـة التثقيـف الصحـي إذا مـا تطـور الأمر، ولكن اسألي المريضة أولاً عن سبب عدم تحكمها في إخراج الفضلات.. هل تشـتكي من مرضٍ ما؟). تسـاءلت أنجيلا ونحن نقف بجوار سـرير مريضة الغرفة رقم خمسـة، والتي أنجبت طفلها البارحة. كانـت فـي العقـد الرابـع مـن عمرها، امرأة بسـيطة جـداً، كما يبدو من هندامهـا المتواضـع، حضـرت مـن بلدة قريبة مـن الرياض لزيارة أهلها وفاجأها المخاض قبل أوانه، فأنجبت طفلها هنا. لم يبدو أنها فهمت أي شيء مما قالته أنجيلا، ما دعاني إلى ترجمته إلى العربية، وانتظار ردّها.. بقيت صامتةٌ للحظات، وقد أنكسـر نظرها ليتجه نحو الأسـفل ولا يعود له القدرة إلى الانتصاب عالياً. اسـتغربت صمتها، فتوجهت لأنجيلا بالسؤال حول احتمالات أسباب حالة المريضة تلك..فأجابت بأنهـا لا تعـرف علـى وجـه التحديـد، وراحت تُعدد بعض العوامل التي يمكن أن تتسبب في الحالة، استغرقت في الحديث، وأنا أستمع حتى أتت على نقطة أخذتني بعيداً ولم أعد أسمع شيئاً بعدها..

(الممارسات الجنسية في المكان الخطأ، قد تُحدث أمراً كهذا..)

لم يحدث أن نوقش ما يمت بصلة لوجعي في مكان عملي أبداً، أعمد دائماً إلى الهروب من أي حديث حول هذا الموضوع، وفي أضيق الحالات أُغادر المكان بأي حجة لأتلافى النقر على مسامع خصوصيتي، ولكن وقتها لم أدر ماذا أفعل؟ التحدث ليس خياراً، هو جزء من واجبي المهني، يقتضي معه إتمام المهمة، ورصد بوح الأُخرى مهما كان، والأُخرى تبدو وكأنما تتستر على أمرٍ ما، فهل أهتك ستراً جاهدت سنيناً لرتقه؟. أصابتني عدوى الصمت، وكأن إتمام الحديث سيأتي على كلتينا، ورُحت أواسي مع أنجيلا أطراف الغطاء المُسدل على جسد المريضة، أخصفه ورق توت يستر أطراف خوفي التي بدأت في الانكشاف عاريةٌ للعيان. لم يطل الصمت بعدها وقد تهالكت على أقرب كرسي بجانبي، وأنا على وشك فقدان وعيي.. عاجلتني أنجيلا ما أن لاحظت تغير لوني:

(What is wrong with you Amnah?)
(What is right?!)

كِدت أن أُجيبها مُستنكرةٌ، لولا أن لساني انعقد فصمتْ. كانت أنجيلا قد انتهت للتو من تغيير ملاءات مريضتها، فسحبتني للخارج، وهي تُمسك بي، مُصاحبةٌ إياي إلى استراحة الجناح.. عندها لم أحتمل المزيد فانفجرت باكية لا أقوى على قول شيء.. بقيت هي بجانبي ملتزمةٌ الصمت، تُربت بيدها الحانية على متن هميّ المُثقل تارةٌ، وتمسح أدمعي تارةٌ أُخرى.

قامت إلى الباب وأغلقته. كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمح فيها لسري الأسود بالتسرب دفقاً أمام الآخر. بكائي ليس سهلاً، نادراً ما تُمطر أحزاني، رُبما لأن البكاء يعني خروج الهم من دواخلنا، فلا ألجأ إليه إيماناً بأن همّي أكبر من فجوات التنفس الضئيلة تلك، ولعله

أيضاً رسالة صريحة للاستعداد للبوح نُطلقها عندما نتوقع وجود من سيسألنا عما بنا.. لذا لا أبكي إلا نادراً، فأنا لا أنتظر مهتماً يسألني ما بي، غير أني هذه المرة، تصرفت على غير عادتي.. لا أدري لِم تصرفت هكذا؟ ولا كيف بُحت لها بالسرّ؟ يُمكن لكونها غريبة لا يُهدد تواجدها الدائم ذُعري المستوطن؟ أو لعل مرجعيتها الأجنبية كانت درعاً أحتمي به من محليّة الأحكام المُحتمل سقوطها عليّ؟ربما فعلت أنجيلا ما لم يستطع أحد من المُقرّبين فعله معي بأن أشعرتني بالحُب والاهتمام فعلاً، ففتحت بحنانها أكياس قيحي لتُفرغ بعضاً من محتواها ذلك اليوم!.

لم أحكِ لها كل شيء بالتفصيل، كان الكلام بالنسبة لي صعباً للغاية، وكأنما هو عيش للتجربة مرة أخرى.. وهي كانت ذكية فلم تزعجني بطرح الأسئلة.. فقط قالت بنصف كلام ونصف تعبيرات وصلتني من ذهولها المرتسم على وجهها بأنها تفهم، وأني لا أحتاج إلى التحدث إذا لم أُرد.. غطيت وجهي بكفي أحجب ما استطعت من الصور المؤلمة المتراكمة في صندوق ذاكرتي الأسود التي تدحرجت بمجرد ما نُفّس لها، وقلت وأنا أنشج بضع كلمات متقاطعة فهمت منها أنجيلا بأني كنت هناك في تجربة مرّة مشابهة ذات يوم.. ثم صمت ولم أزد في حينها بينما لم نعد إلى التفاصيل إلا بعد مرور وقت طويل على ذلك اليوم.

ذكية أنجيلا جداً في تعاملها مع الأوجاع المستورة، تختبرها بمهارة عالية، لا تحتاج للكثير كي تُحدد موضع الألم، وتمسح بلطفها على جبين الجُرح.. هكذا فعلت معي. لم تُشعرني بعدها بأي تغيّر في المعاملة لا سلباً ولا إيجاباً. غير أني صرت ألمح مؤازرتها لي في بعض الأمور التي من شأنها أن تُحسّن حياتي، مهنياً على الأقل..

كُنت أخرج معها أحياناً لوحدتها السكنية في مجمع سكن الممرضات التابع للمستشفى، أقضي معها ساعة الغداء، ونعود معاً للعمل. هُناك التقيت (جون) صديقها، والموظف في إدارة التدريب والتطوير. بعد الغداء عرض عليّ فكرة الابتعاث لإكمال دراستي بالخارج، مُشيراً إلى أن المستشفى قد فتح الباب لحاملي شهادات الثانوية، خريجي القسم العلمي لإكمال الدراسة في الخارج، قالها وهو يُمدّني بأوراق طلب البعثة. بدا لي وكأن أنجيلا قد رتبت للأمر مُسبقاً، محاولةً مساعدتي بأي وسيلة.كان الرفض القاطع هو أول إجابة عاجلتهما بها دون إبداء الأسباب، ودون أدنى قدر من مناقشة الأمر، ما أستثار غضب أنجيلا، فتوجهت نحوي تلومني على تضييعي لفرصة ذهبية كهذه. أخبرتها بأني لا أستطيع، فأخي لن يوافق، وكذلك لو افترضت جدلاً موافقته، فمن سيرعى أُمي فيما لو غادرتها؟ هذا عدا أني لم أُغادر الرياض ولا مرة طوال حياتي، إلا في رحلة العُمرة بصُحبة أمي وسلطان والتي مررت من خلالها على الطائف حيث تقطن هُدى أختي.. فكيف لي أن أذهب وحيدةٌ للدراسة في بلاد أجنبية! فما كان من أنجيلا ببساطتها المُعتادة إلا أن نصحتني بأن أستغل فرصة التقديم على البعثة، على أن نبحث الحل لكل مشكلة في حينها عوضاً عن افتراض عرقلتها قبل الأوان. وأشارت في حديثها إلى أن جون سيقوم من جهته بمتابعة أوراقي مع إدارة المستشفى. حماسها وهي تتحدث ذلك اليوم ألقى بأرديته على هيكل ترددي، كاسياً الأمر بثياب الأمل، فما كان منّي إلا نفضت التردد عنّي، وقمت بتعبئة البيانات، وقد أضمرت أمراً في داخلي، وهو أني لن أخذل أنجيلا في وقفتها معي، مُطمئنة نفسي بأن تعبئة أوراق البعثة وتقديم الطلب لا تعني بالضرورة حتمية التنفيذ، فحسب خبرتي البسيطة لا تسير أمور كهذه بالسهولة التي تتخيلها أنجي ورفيقها. مُنذ

ذلك اليوم وفكرة الهروب بحجة الدراسة تُباغتني أحياناً كفسحة أملٍ تلوح لي كلما التقيت وحصار سلطان... غير أن مجرى الأمور سيتغير حتما بعد الحادثة الأخيرة التي ألمت به..

أفقت من ذكرياتي على أنجيلا تودعني وهي تهم بالخروج لنُزلها، وسألتني إن كنت سأحضر غداً فأخبرتها بأني على الأرجح سأفعل برغم أن الغد هو يوم أجازتي فأمي ستحضر لزيارته وسأكون معها في الغالب.. هَمَسَت وكأن هنالك من يسمعنا:

(أعتقد بأنه سيموت..).

صمتت قليلاً ترقب وقع كلماتها عليّ، ثم أردفت:

(حالته الصحية سيئة جداً)

(أتمنى ذلك يا عزيزتي). أجبتها وأنا أنظر إلى الأرض خشية أن أرى رد فعلها، مع علمي بأنها لن تلومني، لكن الخوف الذي يسكنني علمني أن لا أثق بأي شيء كان. خرجت أنجيلا وبقيت حيث أنا بانتظار السائق.. وما هي إلا دقائق وهو يتصل بي ليبلغني بأنه قد وصل..

* * *

(3)

في المقعد الخلفي لسيارة رفيق السائق الهندي المؤجر جلست وأنا أشعر بالانزعاج جراء تدفق دم حيضي الذي فاجأني في الصباح بمزاجه النزق مبكراً عن عادته.. رُبما جراء قلقي وإجهادي. تململت في جلستي قليلاً محاولةً اتخاذ وضعية مريحة تخفف انزعاجي..قبل ساعات، وفي أول الصباح أفقت على قطرات الدم تلك، أتت مُرتبكة تلوّن لباسي الداخلي، وكأنما تتعمد إسقاط الطُعم للذاكرة، لتعلق به وترحل تتبع تلك القطرات.. لتأخذني بعيداً حيث المرة الأولى، المحمّلة بقلق التجربة البكر. أول مرّة كنت في الثالثة عشر، عمر التأرجح بين الطفلة والمرأة..أو كما يسميه باعة الملابس الجاهزة (العمر المُحيّر).. كنت أسمع هذا اللفظ يتردد بينهم في السوق وهم يسألون المشترين عن عمر صاحب الثياب المُبتاعة.. نعم، إنه العمر المحيّر.. عمر الخلط بين قفزي صغيرة تركض لمقابلة شاشة التلفاز تتابع سندباد الرحالة.. وبين البحث عن قصص الحُب في شخصيات الحكاية الكرتونية.. هل أحب علاء الدين ياسمينة الفتاة الجميلة المسحورة..؟ أم أنها لا تعدو كونها طيراً سلبته الساحرة فتنة الأنوثة والجمال فلا يعود يُعشق؟!.. تتردد الأنشودة في ذاكرتي..

(أنا سندباد المغترب... أبعد أبحر أقترب...

لا أهاب الموج أبداً... حين يعلو ويضطرب...

سندباد لا يخاف سندباد... مهما تكثر الأخطار ويبعد عن بغداد...)

توقظني الكلمة (بغداد).. تسقط كقنبلة أمريكية على رأسي المحمل بصور الأفلام الكرتونية الحالمة.. تُفجّر ذاكرتي الطفلة.. لتتركها شظايا.. مُحيلةٌ ياسمينة إلى نبت محترق، وسندباد إلى شاب مُقعد.. سارقةٌ من علاء الدين مصباحه السحري، فلا يعود لأبطالي الصغار أي شيء يزهون به علينا نحن المتفرجون، سوى أنقاض دامية.. مدينة خالية منكوبة.. ثكلى تبكي تاريخها المسحوق..استحالت إلى ميادين يعوث فيها اللصوص.. فكيف سيتعرّف بطلي على الأربعين حرامي.. بين ملايين الوجوه الغريبة المتجولة في شوارع بغداد.. لم يبق شيء سوى الدم الأحمر الذي تجاوز المدينة طائراً عبر أجنحة الفزع.. ليرش بعضاً منه في لباسي الخاص.

أول خبر في نشرة أنوثتي ذلك الصباح البعيد.. تخطه قطرات الدم تلك.. معلنةٌ:

(فسيولوجياً.. صرتي امرأة يا آمنة..)

المرة الأولى كانت في المدرسة.. باغتني الحيض على غفلة.. أتى مجهولاً، من مجهول.. ولا رفيق يُفسر هذا المجهول لبراءتي الناصعة.. ولا حاني يمسح الذعر عن جبين الطفلة في روحي. في فترة الاستراحة (الفسحة المدرسية) ذلك اليوم، أخرجت شطيرتي من الحقيبة، وابتعت عصيراً من مقصف المدرسة، ثم اتجهت للحمام، لأفحص هذا البلل المفاجئ الذي اجتاح ثيابي الداخلية كمد اكتسح قلعة رملية بناها صغيراً للتو. كاد اللون أن يفضح ستر مريولي الرمادي لولا لطف الله. أغلقت باب الحمام بإحكام، وهززته برفق كعادتي، لأتأكد من أنه مغلق، فالحمامات أماكن سريّة، أكشف فيها مواطن جروحي النازفة، وآخر ما أحتاجه فيها، هتك مفاجئ لأسراري الصُغرى تلك.. تركت طعامي مع صديقتي المُعلّقة انتظارا عند باب

الحمام، وشرعت أبحث عن سرّ الرطوبة المفاجئة.

داكنةٌ صدمتني تلك القطرات الأولى، وكأنها تؤكد حضورها المُباغت موغلةٌ في عُمق اللّون.. أو كأنما تنتقم لسنين تأخرها بمضاعفته، ففي بلادي ذات الأجواء الحارة تنضج أنوثة أغلب الفتيات باكراً، إثر سخونة الجو.. ورُبما شُحّ غيث الحُب..فيمطرن على طريقتهن الخاصة.. وأنا كنت من المحظوظات القلائل، اللاتي أمهلتهن الطبيعة قليلاً، لينعمن بزمن الطفولة بضع سنين أُخر قبل أن ترسم خط (بارليفها) الفاصل بين الطفلة والأنثى فيهن..

ندت عنّي شهقة ذلك اليوم وأنا أُحدّق في البُقع الحمراء.. لم تكن فاتحةٌ مثل تلك البُقع التي شهدتها قبل بضع سنوات مضت.. مرات عديدة كان يقوم عنّي مُخلّفاً توقيعه على شهادة ميلاد اغتيالي.. قطرات قانية بعضها بهت وخف لونه إثر اختلاطه بالعرق، وماؤه. لزوجة تلتصق بوجعي، ليجرّني بعدها وهو يرتجف نحو الحمام.. يغسلني.. يمحو ما يستطيع من أثره الدامي على دفتر مخاوفي وفزعي، غافلاً أو متغافلاً عن الجُرح النازف دفقاً في أروقة الروح.. أستسلم له بخوف، مطرقةٌ نظري للأسفل، مُتحاشية بقدر استطاعتي تسجيل المزيد من ملامح ذلك الحدث في ذاكرة بصري الهشّة، الممتلئة بأخيلة وحشيّة مشفّرة.. زُجّت فيها دون أن تُلحق بالأرقام السريّة الخاصة بحل رموزها.

(وسخة.. نظفي نفسك) يقولها متلعثماً وكأنما يُبرر لأحد سرّ الحمامات المفاجئة التي يدفعني إليها.. يصرخ فيّ ولا أحد حولنا، وهو يزج بي للحمام مؤدباً وهمه، أو متوهماً الأدب.. يتركني بعدها وأنا زائغة النظرات.. أسكب الماء على جسدي المُتهالك، بينما يدي الصغيرة تقوم بعملية مسحٍ لتُسجل حجم التلف الناتج عن غارته تلك.. يذهب بعد أن يتأكد من زوال مخلفاته القذرة عن جسدي، لأكمل أنا ما

بدأه للتو.. وأبقى في الحمام تحت الماء، كسمكة تلوذ بالعمق خشية أن يلتقطها صياد، حتى يغيب صوته من البيت.

أحياناً لا يغادر المنزل مباشرة بعد أن يهتكني.. يبقى عند مسرح الجريمة.. يدور، يُشمشم ككلبٌ بوليسي أي رائحة نتنة يُمكن أن تفضح عفنه..يتأكد من إسدال ستائره على مسرح الجريمة.. ومغادرة كل المتفرجين للمكان.. أُصلي بقلبي الوجل كي يرحل.. ساقاي تنتفضان.. خيول نبضي لا تتوقف عن الركض حتى يبتعد.. لو كان لي خيار التحدث إليه لأقسمت له بأني لن أخبر أحداً.. فقط أرجوه أن يغادر.. يبتعد عني قليلاً.. يعطيني مساحة صغيرة أمد عليها خيمة أمن مؤقتة، تحميني من ريح الفزع العاتية التي تجتاح مُدني فتقتلع كُل ما على السطح.. ولكنه لا يدعني أتكلم.. يقول لي لو أخبرتي أحد عما يحدث هنا.. أذبحك.. يلفظ كلمته الأخيرة وهو يُمرر كفه الغليظة عرضاً على حنجرته، ويحركها كما السكين، حتى أني خلت الدم ينزف جراء حركة يده تلك.. أهزّ رأسي مُطيعةٌ، وأطرق كعادتي أنظر في الأرض.. أتساءل في عفوية كيف يظن أني سأحكي؟ ولمن أحكي بالأصل؟. يسكنني شعورٌ قاتل بمسئوليتي عما يحدث.. نشأت هكذا..ككل الصغار الزائدين عن العدد، لا وعي ولا أحضان دافئة تلقف شكواي الحائرة.. مختلطاً في ضميري المستتر كلاً من الفاعل والمفعول به.. مُحاطةٌ بمظلات نصبه.. وشراك رفع منسوب الذعر فيّ.. ليبقى الفعل مُبهماً.. لا محل له من الإعراب.. ولأبقى أنا ضحية ترزح تحت سيفه الصدئ.. فلا هو حاد بما يكفي لقتلي.. ولا هو يرحم فيكف عن تمريره على الجراح.

(يالله يا آمنة.. تأخرنا.. الفسحة بتخلص)

ينبعث صوت صديقتي من الماضي البعيد.. وهي تقف عند باب

الحمام في ذلك اليوم، يُعيدني لرهبة الموقف.. ولقائي الدم في ثيابي الداخلية.. فكرت يومها.. لن أُخبرها بالتأكيد.. لن أُطلعها عما حدث لي.. فما يُدريني بأنه ليس سـرّاً.. رُبما يغضب لو أخبرت أحد عنه.. رُبما يُنفذ وعيده ويذبحني..

(ما بك؟).

صوتها كان قلقاً.. أو لعلها ملّت الانتظار.

(أعطينـي طعامـي وأذهبـي، سـألحق بـك بعد قليـل). لفظتها وأنا أُجاهـد لكـي يبـدو صوتـي طبيعياً.. ناولتني الطعـام مُرتابةٌ، وانصرفت. لم تكن لي حاجة به، ولكني تذكرت المنديل الذي لففت به شطيرتي، سـحبته عنها بعناية، ودسسـته في ثيابي الداخلية..ثم خرجت متوجهةٌ للفصل. لم يكن هنالك أي من الطالبات، لم تنته الفسحة بعد، ما أتاح لي فرصة لترتيب رفوف قلقي، وصف المستجدات فيها، مُتحاشيةٌ قدر الاستطاعة أن يلمح أحد بعثرتي تلك..

يوم حيضي الأول لم يكن يوماً عادياً بالتأكيد، بدليل أنه ثابت في ذاكرتي حتى اليوم.. محفوراً فيها ضمن باقي حفرياتها الموجعة.. ليس الحيض المُفاجئ ما جعله استثنائياً، بل وقعه على الطفلة الحيرى في نفسـي.. ذلك اليوم علّقت بصري على مشـجب الوقت، أنتظر الحصة الأخيرة.. مسـحوبةٌ لآخر كُرسـي في الفصل، مُسـندةٌ إياه على الجدار، تحسّباً لتسرب بقع سرّي الحمراء على المريول، فلا يراها أحد..

(ارفـع علـى المُكيـف يـا رفيـق).. قلتهـا للسـائق وقد بـدأ العرق يتصبب من جبيني...توتر شديد يعتريني، يزداد حدة مع بعثرة هرموناتي، وآلام الحيض التي تعتصرني. لا زال الطريق إلى البيت طويلاً.. أسندت رأسي ثانية إلى نافذة السيارة، بينما شردت بعيني ذاكرتي لذلك اليوم البعيد، لتحضر وجوه رفيقاتي في الفصل واللاتي لم يفتهن أن يلاحظن

توتري الظاهر ذاك، خاصة بعد أن غيرت مكاني من الوسط إلى الصف الأخير.. سمعت همساتهن الساخرة منيّ، ومحاولات فوزية – أكبرهن عمراً – لاستراق النظر خلفي كلما وقفت لأجيب على الأسئلة الموجهة لي من معلمتي.. كانت نظراتها رسائل تُهدد أمني الداخلي.. ماذا لو لاحظت الدم؟ هل ستفشي سرّي الصغير للأُخريات؟ وهل لهذا السر علاقةٌ بتهديداته؟؟ هل يعلم فينفذ وعيده ويذبحني؟؟ مطارق تهوي على مسمار رأسي.. تدقه في حائط الخوف.. فينغمس أكثر فأكثر، خشيت أن ينكسر جذع مسماري من شدة الطرق، وعنفه.. ولكن الله سلّم، فقد غاص المسمار بكامله في الجدار، لم يعد له جذع بارز.. استوى على الحائط.. حتى صرت أنا والخوف سطحاً واحداً.

كان جرس نهاية الحصة يقرع، بينما نواقيس فزعي تعلو.. وعلى غير عادتي لبست عباءتي في الفصل ستراً، وتسللت خارجةٌ وفوزية ساخرةٌ تُلقى على مسامعي بقذائفها الحارقة:

(أول مرة تجيك..!! تستهبلين علينا يا أمونه..؟!) ثُم تنظر في الأُخريات تنتظر مباركتهن لسُخريتها تلك بالتجاوب معها بالضحكات الهازئة.. كان ارتباكي أكبر من حجم الموقف بكثير، ما شتتني وجعلني أفر هاربة دون أن أُعير همساتهن تلك أي اهتمام وقتها، ولكنها سُجِّلت في لا وعيي بالتأكيد.. تزورني أحياناً عندما تُصبح الأمور خارج إرادتي المشلولة!

لقائي بأمي يومها كان بمثابة رسالة تأكيد لمسئوليتي عن كل ما يحدث لي، كما وكان ازدراء مؤلماً لقلقي المُرتسم جراء فيّض الأنوثة المُفاجئ، ورفضاً غير مفسر من قِبلها لاحتوائي وقبولي كأنثى جديدة تلج العالم وجِلةٌ، بحلّتها الحمراء، الرطبة. توجهت للحمام لأغتسل، ومكثت فيه وقتاً طويلاً، أُفكر كيف أسوق الخبر لأمي، وأنتقي العبارات

المناسبة لإطلاعها على الأمر، ولما لم أستقر على رأي محدد خرجت أجر قدمي لأجدها في غُرفتها تطوي سجادة صلاتها.

(وش فيك؟) عاجلتني لما لاحظت قلقي. بينما لم تحمل لي مع أحرفها أي شعور مشجع على الطمأنينة، ما زاد منسوب توتري.

(فيني دم). قُلتها بصوتٍ واهن، وأنا أُشير بيدي نحو المكان، وأطرق ببصري نحو الأرض. كانت تينك الكلمتان هما ما جاد به لساني الوجل للتعبير عن جزعي. خُيّل لي أن أُمي ارتبكت قليلاً، راحت تُعيد طي سجادتها مرةٌ تلو الأُخرى وهي تضغط على أطرافها بتوتر جليّ. وصلني شعور بأنها غاضبةٌ منّي.. هكذا تصورت، غير أني لم أتلق معه تفسيراً لهذا الغضب. هدأت قليلاً ثُم ألقت بالسجادة على طرف الفراش، وتوجهت لخزانتها، سحبت منها عُلبةٌ بلاستيكية تحتوي على شيء ما، وألقتها نحوي بامتعاض، عندها قالت:

(خذي هذي.. حطيها). قالت أمي، ولم تزد حرفاً واحداً. تعجبت منها، ولا زلت أتعجب حتى الآن، أمي التي لا أستطيع وصفها بالقاسية إذ أجدها في كثير من الأحيان غيمة وردية تمطر رقةٌ ولياناً.. أمي الحنون التي لا تملك أن تصد دمعتها إذا ما مسّني شر، حتى لو كان ارتفاع بسيط في في درجة حرارتي، أمي التي تلبسني الدعوات المخملية الناعمة صباحاً ومساء..هي ذاتها التي تحولت في لحظة إلى كيان جامد لا روح فيه عندما تعلّق الأمر بقضايا الجسد، والبلوغ. وكأنها تقول لي بطريقة ملتوية بأن ما حدث لي عار وعيب، ووحدي أنا المسئولة عنه.. غريبة أمي.. في بعض الأحيان تتراوح بين الصفات كلها وكأنها شخصية زئبقية لا يمكن ضبطها في قالب وصفيّ ثابت.

يومها أخافتني بنزقها، كانت تتحاشى النظر إليّ وهي تحدثني،

مـا جعلنـي أشـعر بأنـي أغضبتهـا بمـا حـدث لـي، فمـا كان منّي إلا أن طأطأت رأسـي وسـحبت العلبة متوجهةٌ إلى غُرفتي لأخرج محتوياتها القطنيـة هنـاك، ورحـت أُقلبهـا غير مُدركة لكيفية اسـتخدامها، حاولت وضعها في ثيابي، ولم أسـتقر على وضع صحيح، إلى أن تنبهت إلى التعليمـات المكتوبـة علـى العلبة، وصححت بها وضع الفوطة. وهكذا مرت التجربة بسلام نسبي، تاركة في وجداني حيرة من استنكار والدتي ذاك للحـدث، وغضبهـا مـن سـيل أنوثتـي الطبيعـي. كان جُلّ ما تمنيته وقتها حضناً دافئاً يحتويني ويطمئن روعي من مفارقة الطفولة، ويُمهد لـي الخطـوة الأولـى فـي عالـم الأنثى الجديد علـيّ، فهل طلبت الكثير يا تُرى؟ صرت بعد ذلك اليوم أجد الفوط النسائية مُكدسةٌ في غُرفتي كل شهر، وكأنها تُعلمني بحلول الموعد. فسّرت ذلك بأنه حرص من والدتـي علـيّ، لا أكثـر، وارتحـت نسـبياً للتفسـير، فيبقـى أفضل من أن أتصور أنها تتجنب حديثاً قد يدور بسبب عدم وجود تلك الفوط، وإذا صدقت هذا التفسير الأخير، فإن الموقف لن يكتفي بذلك، بل سينبش باحثاً له عن إجابات مقنعة، توضح سرّ تجنبها ذاك..

* * *

(4)

قطع سيل ذكرياتي صوت رفيق السائق وهو يسألني بعربية مكسّرة:
(دكتورا.. ايش فيه سلطان؟)

ألقى سـؤاله بعد تردد طويل، وقد عجز عن أن يحتمل غموض الموقف وهو الفضولي الذي لا يكف عن الكلام وطرح الأسئلة، فقد كان هو من أوصلني من المستشفى إلى البيت كدليل يمشي أمام سيارة الإسـعاف ليُرشـدها لمنزلنا الذي عجزت عن وصفه في خضم قلقي وقتها. وكعادته نادني بـدكتورة، مع أني أفهمته مراراً بأنني لست طبيبة، ولا أحمل شـهادة الدكتوراه، ولكنه لا يُغير هذا اللقب الذي أكسـبني إياه، فكل من يلبس الرداء الأبيض هو في نظره دكتور، أو رُبما أحب هو مناداتي بـدكتورة حتى يكسب شرف كونه سائق الدكتورة.. فكرت بماذا أُجيبه، فأنا أعلم يقيناً بأن رفيق لن يسكت حتى يحصل على إجابة، فافتعلت له جواباً يسكت أسئلته التي لا مجال لها الآن.

(حالته مستقرة.. يشكو من معدته فقد أكل طعاماً فاسداً.).. صمت رفيق ولم يعاود السؤال رغم شعوري بأنه غير مقتنع بالإجابة فبالتأكيد كان قد وصل سمعه بعض الكلام الدائر بيني وبين أمي حول تفاصيل الموضوع عندما كنت أحادثها عبر الهاتف النقال وأنا في طريقي للبيت.

رفيق ليس سائقي الخاص إنما استأجرته بسيارته الخاصة ليقلني من البيت إلى العمل والعكس، لعدم قدرتي المادية على استقدام سائق وابتياع سيارة خاصة، ومع ذلك فهو يحشر نفسه في كل تفاصيلي بقدر ما يستطيع. لا أدري لماذا ولكن أسرار حذرتني مراراً من هؤلاء السائقين،

تقول بأنهم يتعمدون كشف تفاصيلنا وأسرارنا الصغرى ليتمكنوا من السيطرة علينا وإبقائنا أسرى لديهم لا نستطيع الفكاك منهم حتى لو رفعوا الأجرة، أو حتى لا نحاسبهم على تأخيرهم وتسيّبهم.. لا أدري ما مدى صحة كلام أسرار لأني حديثة العهد نسبياً مع هذا النوع من السائقين كذلك، ولأني بطبيعتي قليلة التحدث مع الأغراب، وإذا حدث أن تكلمت فلن تكون شؤوني الخاصة هي محور الحديث، لذا لا أتصور أن رفيق قد يستغرب من إحجامي عن سرد التفاصيل.

أجلت بصري حولي، فإذا بالطريق شديد الازدحام، بالكاد يتيح الفرصة لتحرّك السارة وكأنها تحبو، ووجوه سائقي السيارات من حولي يعلوها بعض السأم.. بجانبي سيارة صغيرة بها امرأة شرق آسيوية الملامح تبدو بهندامها البسيط وكأنها خادمة أو مربية تحمل طفلاً لا يبدو أنه طفلها، بملامحه السعودية، كُنت قد فتحت نافذة السيارة، بحثاً عن مخرج من هواجسي، ومن ثرثرة رفيق. خنقتني روائح عوادم السيارات، وغبار الرياض الذي لا يهدأ، لكنني تجاهلت ذلك كله، وفضلت إبقاء النافذة مفتوحة. هذه عادتي دائماً، لا أستطيع السيطرة عليها، أُحب فتح النوافذ والأبواب دائماً طالما أنا لست وحدي. عندما صرنا بمحاذاة السيارة التي تُقل تلك المرأة الشرق آسيوية توقف سير المراكب جراء ازدياد الزحام، ما سمح لي بسماع صوت شجارها مع السائق حول أمرٍ ما.. قالت بعربية مُكسّرة محدثة إياه: يجب أن تجد حلاً وإلا أخبرت السيد بما تفعله ليلاً عندما ينام الجميع.. أنت تعرف كم هو متدين، وأنه قد يزج بك في السجن إذا ما قلت له أنك فعلت ذلك.

كانت تتحدث بانفعال شديد، تصرخ وتدفع الطفل الذي تحمله في حجرها يميناً وشمالاً حسبما اقتضت حركة يديها.. بينما كان

السائق العربي بجانبها يهز رأسه ويتأفف منها، ويخبط بكفه على مقود السيارة، وقبل أن أسمع رده كانت السيارة قد انطلقت للأمام لتحرك سير المركبات الذي على يساري.. انطلقت سيارتنا مباشرةٌ آنذاك، ثُم انحرفت خارج الطريق السريع، باتجاه البيت. فجأة بدأ جسدي يتعرّق، وازدادت ضربات قلبي حتى خلته سيخرج من صدري، ولم أعد أرى أي شيء أمامي.. تسارعت أنفاسي وصور من الماضي قد تحركت في داخلي جراء ذلك الحوار الدائر بين الخادمة والسائق.. وهاجس قلق سيطر عليّ حتى أنني كدت أن أتبع سيارتهما لولا انحراف سائقي في اتجاه مغاير لهما.. راقبت السيارة وهي تغيب عن بصري، ونبضي وخوفي يتباريان أيهما أسرع في الوصول بي لحالة الإغماءة.. الصوت يأتي من بعيد عابراً الزمن ليهمس في أُذني:

(لا تخافين، ما يوجع..)

وجهي قُبالة خزانة الملابس وكفٌ تمتد كأفعى تُطبق بفكها على فمي.. تكاد تكتم أنفاسي.. فلا أستطيع حراكاً.. أبقى هكذا وقت لا أدري طوله بقياس الزمن ولكنه كان كما لو أنه العمر كله.. فها هو الحدث لا يزال يحضر وقتما يشاء.. حيّاً.. مُعلناً أنه سرمدي لا ينتهي ولا يموت. أنفاس تلهث خلفي.. وأنفاسي الآن كذلك، الحركة تزداد، والكف تحكم قبضتها على فمي الصغير.. شيء كبير يحدث، وأشياء أكبر على وشك الحدوث.. أصرخ، البلل يُغرقني.. يتنبه السائق يوقف السيارة جانباً، أفتح الباب، وأكمل قيئي على الرصيف.. أُتمتم ببعض الجمل وكأنها تعاويذ تُبعد أشباح الماضي عنيّ.. وأتناول قارورة العطر من حقيبتي، أرش بعضه على صور الذكرى، لعلّها تُفيق منيّ، وتبتعد..

لم يطل صمت رفيق وعاجلني متسائلاً: سلامات يا دكتورة، هل أنت مريضة؟.

(لا شكراً، أنا الآن أفضل.. عجّل حتى لا نتأخر يا رفيق)

أجبتـه وأنـا أمسـح مـا علـق بسـيارته من قيء الذاكـرة، وأعتذر له بكلمات متقاطعة..

رفعت بصري بعد أن انتهيت من تنظيف المكان، وأسندت جذعي للخلف محاولة استعادة أنفاسي بينما أغمضت عيناي لعل الصور تختفي في الظلام.. أثناء ذلك تذكرت حاجتي لابتياع فوط نسائية فطلبت من رفيق أن يتوقف عند أي متجر في طريقنا للبيت. ابتعت حاجاتي على عجل بينما توقفت قليلاً أمام علبة حلوى ماكنتوش كواليتي ستريت.. تـرددت قليـلاً لعلمـي بأنـي أملك أخرى مثلهـا في البيت ولكن ألوانها المبهجة استدرجني لابتياع المزيد منها.. وضعتها في الكيس وغادرت المتجـر. تأملـت العلبـة.. يـا لهذه الشـوكولاتة الغامضة التي تبقى دائماً فـي أعلـى سـلّم لذاتـي حتـى الآن مهمـا أُبتكر بعدها من أنواع شـهيّة.. إلى الآن يندر أن تخلو خزانتي منها.. بي جوعٌ لها لا يشبع أبداً. ليس جوعاً لأكلها بقدر ما هو لامتلاكها. مُنذ صار لي مرتبٌ شهري ثابت وخاص، وأدراج خزانتي لا تكاد تخلو من الحلوى والشوكولاتة بأنواعها المُختلفة ومذاقاتها المُتمايزة خاصة تلك العلبة المزركشـة، سـيدة كل الحلويات. هكذا أشعر ببعض الأمن رُبما. على الأقل لن يُقايضني أحد على أحلامي ولذّاتي. لخوف جوع الحلوى في نفسـي الجزعة حكايا لا تصمت عن الثرثرة أبداً، حتى لو غرقت في جنّات النعيم. يقرصني ذلـك الجـوع فـي حنايـا الـروح، يئـن أحياناً كلما لاحـت لي صورٌ من الماضي. ذات جوع استدرجتني تلك العلبة الملونة لأقع في مصائدها.. وهناك كانت البداية..

* * *

(5)

(كاكاو ماكنتوش.. كله لك.. خذيه). قال جُملته مُلاطفاً يوم ذاك وهو يمد العلبة المعدنية لي.. حدث ذلك منذ سنين بعيدة، وقت كُنت في الثامنة رُبما، أبان غارته الأولى عليّ.. آثر ربط التجربة بحلواي المفضلة.. كنتيجة حتمية لها.. وطُعماً للصمت.. وربما تخطيطاً مضمراً للاستمرار.. وهو يعلم أن تلك الشوكولاتة هي غاية أحلامي.. في منزل لا تلجه الحلوى حتى في العيد إلا لماماً..

كانت العلبة بيضاء وقتذاك قبل أن تُغير حلتها وتُكسى الثوب الزاهي. أخذتها غير مُصدقةٌ، أحطتها بذراعي والدهشة تغمرني..أُقلّب نظري بينه وبينها.. وأسئلةٌ حائرة تتقافز في ذهني..تهاوت قبل أن تلقى إجاباتها:

(لماذا أنا؟ ولماذا الآن؟ وكيف هو بالذات يكون الوهّاب في حين كان النهاب دائماً؟! قطع السكاكر الرخيصة التي تحضرها لي أمي بين الحين والآخر.. يسطو عليها ويسرقها.. كيف الآن يُجزل العطاء بكرم أضعاف ما سطا عليه؟).

يومها كان يُراقب حبوري بابتسامةٌ ثعلب.. يُنقّل بصره بين الباب وبيني فلا يرى أحداً، أمي وهدى ذهبتا لحضور عرس، وأنا الصغيرة بقيت في المنزل بصحبته، أصر على إبقائي لما طلبت منه أمي أن يأخذني لمنزل عمتي لطيفة حتى تعودان، برر ذلك بقوله أنه لن يبرح البيت ليلتها.. تعجبت أمي لذلك.. كيف يمضي خميسه في المنزل وهو الذي يسهر طوال أيام الأسبوع خارجه!، فعاجلها بأنه مُتعبٌ ويُفضل

البقـاء فـي البيـت للراحـة.. ابتسـمت مُغتبطـةٌ بطيبـة أم تأمل بعفوية في صلاح أبنائها، وأغرقته بدعائها بأن يُديم الله عليه الهداية.. ويُبعد عنه رفقاء السـوء.. تبسّـم حملاً وديعاً وهو يُرافقها حتى الباب، ليتأكد من أنها وهدى قد ركبتا سيارة جارتنا، وانطلقتا للعرس.

(كل أبـوه لـي..؟؟.. قـل واللـه!). عاجلته بقولي ما أن أقبل، فلم يُجبنـي ولكنـه التفـت نحـوي مبتسـماً، وهـو يلفّ ورقـة بيضاء صغيرة محشـوة بفتـات شـيء مـا، ثُـم يطويهـا، ويضغـط علـى جنباتهـا برفق، مسـاوياً إياها ما اسـتطاع، قبل أن يُعلّقها في شـفتيه، ويشـعلها، لتنفخ الـروح فيـه.. رُحـتُ أُقلّـب علبـة الحلوى بين يدي.. أتأملها وكأنها هبة السـماء.. أُبقي عليها مغلقةٌ ما اسـتطعت حتى أشـبع من شـعوري بأني أمتلكهـا كاملـة. أرجهـا برفـق، فأسـمع صـوت خشخشـة القطع تعزف مقطوعـة الأمـل بداخلهـا. أزهـو ما أن أشـعر بثقل حركة الحلوى فيها، ما يعطيني غبطة الامتلاء بامتلائها.. أتصور ألوان القطع بداخلها. أول لون يُشع في مسغبة مُخيلتي هو البنفسجي، يخطو بخُيلاء متقدماً كل الألوان. تأتي القطعة بلقيساً متوجة على عرش الخيال.. تكشف لي عن سـاقها..تُناديني..فلا أقوى على المزيد من احتمال التشـويق.. أسـحب الشريط المُلصق على العلبة..مُزيحة عنيّ فاصل الحُلم والحقيقة.. يقوم هو يرخي الضوء.. ودخان سـيجارته يملأ المكان. حينما تذهب أمي تصبح لسـجائره رائحة مختلفة، كأنها نبت ريحان مُحترق، أو أعشـاب جافة تئن تحت سياط الشمس، مرسلةٌ أبخرةٌ مزعجةٌ في المكان. لمّا أرخى النور ظننته ينوي الاحتفال معي بتتويج ملكتي.

(لا بأس ليُشـاركني الحُلم، فهو من صنعه لي). تشـاغلت عنه.. أفض بكارة الصندوق بيدٍ حانية ونفسٍ ولهة للقيا الشوكولاتة الحُلم.. تناثرت القطع الملونة أمامي إثر فتح العلبة، وكأنهن سجينات أمضين

دهراً في زنزانتهن وللتو أبصرن الحريّة. قفزت ألاحقهن، وطيف خلفي يُلاحقني بنظراته الملتهبة. لملمتهن وأعدت صفهن في الصندوق السحري..رددت سؤالي مُزيحة به احتمال أن أكون في حُلم لا ألبث أن أفيق منه:

(صدق والله.. كله لي بلحالي؟) سألته وأنا أحاول من خلال النور الخافت التحديق في عينيه التي ستفضحه غالباً لو كان يسخر منّي، لكن عينيه ذلك اليوم ما كانتا تلك التي عرفتهما من قبل.. لمع منهما بريق لم يوح لي بالأمان حينها. خشيت أن يأخذ الحلوى، فكررت السؤال مرة أخرى وكلّي رجاء أن تعود عيناه التي عرفتها من قبل.

لم يُجب. اكتفي بابتسامة منتصرٍ كست مُحياه الرمادي، وأطال النظر إليّ. اعتبرت ابتسامته تلك إجابة على سؤالي وتجاهلت الخوف. كان الضوء خجلاً، بالكاد يفضح ستر الظلام، وقطع الشوكولاتة تتلألأ بحُليتها الزاهية. بانوراما ساحرة.. يضفي عليها النور الخافت مزيداً من الدهشة.. فتُشع عاكسة إياه في صور خيالات لامعة.. تظهر وتختفي.. تهتز راقصة على أنغام جزلي.. وها هي ملكتي البنفسجية شامخة بين وصيفاتها، تُنقل بصرها في سبأ السُكّر والكاكاو.. تستند على القطعة الخضراء المثلثة من جهة، وتومئ للزرقاء مُبتسمةٌ. تتحرك القطع من جراء فرحي، خضوعاً للملكة وترحاباً بي.. فتصطف مُتحلقةٌ في نصف دائرة خلف العرش، تُغني أهازيج عُرسي.. لتقف الصفراء الطويلة تتلوى راقصة بغنج بعد أن أسكرها اللحن.. ورأسي الصغير يتمايل يميناً ويساراً.. مترنماً لتلك النغمات.. مُحرّكاً انعكاسات الضوء على قراطيس القطع.. فتبعثني بهجةٌ. في غمرة الفرح تلك تراءى لي من بعيد ثوب هدى الزري البرّاق.. وهي تلبسه في أحد الأعراس، مرت أمامي أثناء زفة العروس وهي تتهادى في القطيفة البرتقالية المزركشة.. المرشوشة

بالـزري.. يتوهـج ثوبهـا إثـر سـقوط ضوء عقـود المصابيح المعلقة في الدار عليه.. تبعتها..مشيت بمحاذاتها.. حرّكت رأسي لما توقفت هي عـن الحركـة، حتـى لا تتوقـف رقصـات الزري تلـك.. تُبهرني الألوان والأضواء دائماً، حتى أني لمحت ثوب هدى بعد سنوات منعكساً في شـواطئ جدّة، لمّا عانقت ضوء القمر في ليلةٌ بيضاء..وسـمعت أغنية ذلك العرس تتردد من وشوشات عناق الماء بتراب الشاطئ..

يامن شاف العريّس يا من شافها..

يا من شافها تمشي على هونها..

يا من شافها تزهي بثوب الحرير..

أُفقت على بلقيسي الحلوة تناولني قرباناً.. إنها الخضراء المثلثة. تُرجئ ملكتي تقديم روحها لي.. تقذف لي بوصيفتها الأولى.. شهيّةٌ.. هشّة في حُلّتها السندسية.. شرعت أُقشّرها برفق، خشية أن تضيع منها قطعة في ثنايا الثوب..ثم أُقربها من أنفي أشمها أولاً.. فتغزوني رائحة البندق الفواحة عطراً.. فأنتشي وأنا أُسقطها في فمي..الآن صارت ملكاً لي.. تذوب في لساني مخلّفةٌ نكهةٌ ترفعني لأُحلّق في دنيا الترف.

لم أعد أراه.. أسكرتني الشوكولاتة.. وأعمتني بانوراما الألوان.. وأهازيج الفرح تلك.. يدي على الملكة هذه المرة، لا مجال للمراوغة.. أشتهيها الآن. تهادت برشاقة لتقع بين أناملي، فبدأت بنزع ثيابها عنها، ويدٌ أخرى في الوقت ذاته شرعت تُجردني الثياب.. تسمرت للحظات، ولم أفهم ما يحدث.. هل ظنني قطعة شـوكولاته؟ هل ظنني ملكةٌ؟؟ كيـف؟ لا يُمكـن!. لـم أدر مـا يجـب علـيّ فعلـه.. الحلـوى تُحرضني على الصبر، وتستدرجني للمزيد من الاحتمال.. والبنفسجية عارية في كفـي الصغيـر تُناديني.. لكـن فمي موصد.. أطبقت عليه كفٌ أخرى.. والثقل يزحف فوق جسدي رويداً رويدا.. وسكين صدئة تشق ستري

الغـض.. مُحدثـةً ألمـاً لا يوصـف.. ألـمٌ ينحت في لوحي جملة العطاء المشـروط.. ماكنتوش.. الحُلم المُقايض، يؤكدها كلما مرّ القلم على صُحفي العذراء.

اشـتد الوجع فضغطت بكفيّ الصغيرتين، بشـدة، فسـمعت صراخ الملكة وهي تعتصر بين أصابعي.. آلمتني.. مزقت قلبي حزناً، وشوشتها:

لم أقصد، سامحيني. الوجع هو من شد قبضته عليك. لم تُجبني.. بقت صامتة هذه المرة، وكأنها خرست.

صار في مواجهتي تماماً.. لم أسـتطع دفعه.. كفٌ أصغر من أن تدفعه وأخرى مشـغولة بالملكة تُمسـك بها.. أنفاسـه تتسارع، وجسدي يئن تحته.. وبلقيسي لا عرش لها الآن، ولا جان. ازدادت حركته سرعةً، لم يعُد يُبالي لغضاضة جسـدي، مُنشـغلاً برغباته المشـتعلة. راح يمخر عبابي غير مُكترثٍ لأنيني المكتوم، إلى أن أتاني الصوت.. صرخةٌ تائهةٌ تُفارق حنجرته لتنسكب نصلاً في ذاكرتي.. ناقوساً يدق معلناً النهاية.. وقيء يملأ الكون، طوفاناً يُغرقني باصقاً على جرحي الواهن.. فينبت قيحاً لا يُغادر جنبات الروح ما عشت..

بكيـت.. حاولـت الفـرار، ولكـن الصـوت زأر: رُفعـت الأقلام.. وجفّت الصحف!.

ما أن قام عنيّ، حتى استندت على كوع ذهولي وجلست مذعورةٌ ألملم بقاياي.. بلقيسي كفّت عن الصراخ منذ قليل..فتحت يدي بحثاً عنها، فلم أجدها.. فتشت عنها في كل مكان. أين ذهبت؟. تركتها عارية هنا، تنتظر زفافها إليّ.. أضاء المكان، فأمعنت النظر، لكنها ليست هنا كانت قد رحلت، مُخلفةٌ ورائها لون بنّي يلطخ كفي الصغير.. إنه دمها.. وفتات جنينها البندقي تنام شظايا بين أناملي المرتجفة.

أعلنتها مذ ذاك اليوم.. اغتيلت بلقيس، في يوم عرسـها.. وسـط

الأهازيج، مُحيلة الفرح إلى بانورما خوف لا منتهي.. يُغني باكياً..

يا من شاف العريّس يا من شافها..

يا من شافها تمشي على هونها..

لم أر عينيه مذ ذلك اليوم. صار يواريها عنيّ.. يُحدثني دائماً من وراء حجاب..

ترهقني ذاكرتي كثيراً، كم تمنيت لو كانت جزءاً من جسدي لبترها غير آسفة عليها. لم تُبق لي مساحة خالية من العبث. تأتي وقت تشاء وتأخذني إلى متاهات لا أعرف نهايتها.. تقفز من زمن إلى آخر متخطية كل الحواجز المنتصبة. في أمر الذاكرة كما الروح، لا شيء يمنعها من التسرب إلى حيث تُريد.. ماشية بي فوق شوك تفاصيلها، حافية القدمين.. تتأرجح بي، تأخذني بعيداً، وتعود تقذفني إلى آخر مدى في تردد ذبذبي لا يُراعي ويلات ارتطام جسد الحدث بحواجز الأزمنة، لا يُدرك أن الانتقال العشوائي هذا قد يتسبب في سكتة أمل تميت قلب الحاضر، وتهلك الروح فيه..

لملمت ذكرياتي ودسستها مع حاجياتي التي ابتعتها للتو، وأخرجت مفتاح البيت من حقيبتي وأنا أحكم الغطاء على وجهي حيث توقفت السيارة أمام منزلنا في حي الفاخرية ذي الأعين المتلصصة، وحيث يحتمل أن أقابل هدى أختي عند الباب قادمة من المطار فلا تسمعني مقطوعة الستر التي ترددها دائماً بمناسبة ومن دون أي مناسبات.

* * *

(6)

(لا جديد. حالته ثابتة كما هي. لم يفق من غيبوبته بعد). أجبت أمي التي عاجلتني بالسؤال عن حال سلطان ما أن دخلت المنزل. لم تكتفِ بإجابتي وراحت تُعيد صياغة السؤال بجمل أُخرى راجية الحصول على بصيص أمل تقتات منه أمومتها الموجعة.. مللت أسئلتها برغم تعاطفي الشديد معها، وشعرت وكأنها كلما قلقت على حاله أكثر كلما تضاءلت أنا كابنة لها، فمهما حاولت التهرب من التفكير بمدى علمها بما بدر منه في الماضي البعيد لا أفلح في الاقتناع بالأمر.. البديهي أن أمي تعلم بجريمته وتتستر عليها لأسباب كثيرة، ولو تغاضيت عن ذلك لأجل احترامها كأم، فإن الطفلة بداخلي لا تفهم هذا التغاضي ولا تعبأ بهذا الاحترام.. تلك الطفلة المذعورة لا زالت على مر الزمن تفتش عن أرض حنان خصبة تغرس فيها بذور رجاء، فتورق أمناً، وأمان.. ومن أجدر بذلك من أمها التي تحمل ذات الرحم المُنبت لذات الشجرة الواهنة المدعوة أنا (آمنة ابنة الخوف).. راحت تلاحقني بأسئلتها واستفساراتها حول وضعه الصحي، فاستأذنتها محاولةً السيطرة على نفسي قدر ما أستطيع، وقلت وأنا أهم بالدخول لغرفتي:

(رجاء يا أمي، أنا متعبة من العمل كذلك من دورتي الشهرية.. أحتاج بعض الراحة). لفظتها بنزق لم تعتده منّي، ودخلت الغرفة مغلقة الباب خلفي، وأنا أعلم بأن مجرد ذكر أمر نزول حيضي سيجعلها تتوقف عن مُلاحقتي لعلمها كم يتغير مزاجي وحالتي الصحية إلى الأسوأ أثناء

فترة الطمث. شعرت بالذنب جراء قسوتي عليها ولكن شعوري هذا لم يدم طويلاً بعدما تناهى إلى سمعي صوتها وأنا في الحمام وهي تحدث أختي هدى عبر الهاتف وتخبرها بأنها بانتظار وصولها المنزل إذ وصلت للتو لمطار الرياض، قادمة من الطائف حيث تعيش، بغرض الاطمئنان على حال سلطان.

آثرت الاحتماء بغرفتي هروباً من روائح الطبخ التي ملأت المكان، كذلك للحصول على بعض الراحة قبل وصول هدى. اغتسلت ثم لجأت لفراشي، وتمددت فيه، أفكر في كل ما حدث وما يحتمل حدوثه في الغد القريب. خفضت النور قليلاً وسحبت البطانية أدنيها على أطرافي الباردة فإذا بها تصدم بإطار إحدى الصور المرصوصة على طاولة صغيرة بجانب سريري فتوقعها.. قمت إلى حيث الإطار وأعدته مكانه وأنا أُحدّق في الصورة الباسمة المحفورة بتفاصيلها في مخيلتي والمشابهة لذات الانعكاس المثبت على الورق بين أسوار الإطار..صورة الراحلة الصغيرة بسمة. ندت عنّي تنهيدة وأنا أُجاهد لمقاومة حيل الذاكرة التي تستدرجني بها إلى حيث تُريد، فالآن بالذات لا رغبة لدي في نكش الماضي، ولكن يبدو أن رغبتي وحدها لم تكن كافية لتصد زيارات الذاكرة المفاجئة، فهاهي تُهاجم وحدتي، مُتسللةٌ من نوافذها المشرعة.. تُباغتني من أُطر الصور المرصوصة أمامي. تُسدل على وجهها ملامح (بسمة) ابنة أخي، أول فرحته وزوجته هند، وأول محاولة صلح جاهدت لصنعها مع طفولتي المنتهكة.. تلك الصغيرة التي غربت في مُستهل عمرها.. لم يكن رحيلها غروباً، بل كسوف كُلّي. فالشمس لا تغرب قبل نهاية اليوم، وصغيرتنا غادرت في بدايتها.. أَفَلَتْ عن عمر سبع سنوات، سارقةً معها أملي في استعارة جزء من طفولتها الباسمة لألوّن به بؤس

عمري. رحلت فجأة دون أن تُهيئنا لرحيلها الفاجع. سنة ثقيلة مرت منذ ذلك الغروب.. تراءى لي طيفها من بعيد تركض في فناء الدار، تقفز بين إخوتها، تُعلمهم ركوب الدراجة.. متباهيةٌ بكونها أكبرهم عمراً.. يُلاحقها سعد مُحاولاً الإمساك بالدراجة، والصغير عبودي يحبو خلفهما مُقلداً لا أكثر، وغير مدرك لما يفعلان غير أنه يلهو معهما فقط.. تتعثر دراجتها في ألواح ملقاة على الأرض، فتسقط منها، لتقوم ثانية على عجل تنفض عنها تُهمة الجهل بالقيادة التي تجلّت لها في نظراتي القلقة من بعيد.. فراحت تتباهى بأنها تعرف الكثير. ترفع رأسها عالياً وتسوّي فستانها الملتف خلف ظهرها إثر السقوط.. تُعيده لمكانه وتُعيد زهوها الطفولي بقدرتها على فعل كل ما لا يقدر أخويها على فعله.. تجلس على ظهر الدراجة مرة أُخرى ونظرها معلقٌ بي، تتأكد من أني لا زلت في حالة انبهار من استعراضها ذاك.. يعود سعد يُلاحقها ثانيةً ناسياً بذاكرته البكر أنه أمضى ساعة وهو يُكرّر نفس الفعل دون أن يحظى بفرصة واحدة للتربع على حلم دراجتها.

بعد قدوم بسمة إلى الحياة اضطر سلطان بإلحاح من زوجته هند إلى الاستقلال في السكن، ولما كنّا من ذوي الدخل المحدود جداً وأحيانا من ذوي (المحدود) جداً دون (الدخل)، فقد اتخذ سلطان من السطح أو الدور العلوي -كما نسميه الآن- بيتاً له، هيأ له فيه جناحاً صغيراً يأويه وأسرته، بنى غرفة إضافية مع الغرفة الموجودة بالأصل بينما ماطل في أمر رفع أسوار السطح التي كانت منخفضة جداً وتشكل خطراً على الأطفال.. وكان أن هيأ لي باستقلاله في السكن آنذاك فرصةٌ للحياة، بحيث كفاني مشقة تواجده الدائم أمامي، فصرت لا أراه إلا لماماً، ما أراحني كثيراً، كذلك ساهم استقلاله في السكن

في موافقته على عملي بأحد المستشفيات، بعد ذلك بسنتين تقريباً كي أُساعد في زيادة الدخل، وبذلك يتخلص من مسئولية الصرف على بيتين. خاصة وأن عمله كحارس أمن في أحد المجمعات التجارية لا يكاد يكفيه للصرف على مزاجه الخاص، فكيف به مسئولاً عن بيتين؟ كان سلطان رافضاً لعملي في البداية، ولكن بريق المال غيّر رأيه، خاصة وأن معتقده بضرورة بقائي في البيت دون عمل لم يكن مبنياً على قناعة حقيقية، أو مبدأ، إنما هو ضرب من ضروب السيطرة على الإناث في حظيرته لا أكثر. يكرر سلطان عبارات كثيرة لا أدري من أين أتى بها وهو الرجل العابث الخالي من الأخلاق والقيم.. يقول بأن المرأة ليس لها إلا بيتها، ثُم يترك زوجته فيما بعد تُتابع عملها كمعلمة، وكأن زوجته ليست امرأة مثلنا! أختي هدى نجت من حصاره بزواجها بأول خاطب تقدم لها، حدث ذلك منذ سنوات. لم يكن خاطبها ذا مواصفات مميزة، ولكنه بالنسبة لسلطان كان خياراً جيداً، حيث يرفع عنه مسئولية إحدى إناثه المُثقلات على كاهله، فلم يتأخر في تزويجها منه، كافياً إياها عناء التفكير في الموافقة على العريس، مُقرراً بالنيابة عنها أن العريس كفء لها.. وهدى ذات العشرين حينها، لم تُحرك ساكناً بل بدت وكأنما هي مُرتاحةٌ للفكرة، بعد أن ضيّق سلطان عليها الخناق في البيت، بمنعها من إكمال دراستها قبل أن تُنهي الثانوية، وإلحاقها بمجموعة تحفيظ القُرآن قسراً، كعقاب لها على فعلتها، بعد أن ضبطها تُحادث رجل غريباً على الهاتف.. مُنذ ذلك اليوم وإلى أن تزوجت هدى والهاتف يُرفع وقت خروج سلطان ويُعاد ما أن يعود للبيت، كما ولا يسمح لها بالخروج إلى أي مكان.. مرّت فترةٌ طويلة قبل أن يوافق على انضمامها إلى مجموعة التحفيظ التي نظمتها بعض الجارات، بصحبة أمي، ولما لم يرُق الأمر لِهُدى،

فقد توقفت عنه، وآثرت مُتابعة المُسلسلات في التلفاز، والعيش في خيالها الخاص، إلى أن طرق بابنا أحدهم طالباً القُرب، ورحل بها بعيداً إلى حيث مكان إقامته في الطائف.

(بسمة طاحت من السطح). سنة مضت على جُملة أمي تلك. قالتها ما أن أجبتها على الهاتف في ذلك النهار الأسود.. كُنت في العمل، في غرفة أحدى المريضات، هاتفي المحمول لا يكف عن الاهتزاز في جيبي وأنا أتجاهله غير عابئة به.. فمن سيطلبني في الصباح سوى أسرار تدعوني لشرب القهوة، أو صالح الذي تدعوه أسرار صديقي، بينما لم أصل أنا شخصياً لصفة ملائمة يمكن أن أسبغها عليه. أهملت اهتزاز الهاتف النقال على أن أجيب عليه ما أن أنتهي من مرور الأطباء على المرضى.

اعتاد صالح على الإلحاح عندما يطلبني على الهاتف، أخبرته مراراً بأني لا أستطيع الإجابة عليه أثناء تواجدي في غُرف المرضى، ولكنه لا يأبه لكلامي، رُبما ظنني أُبالغ في الحرص، أو أتعمد تجاهله، فتأكله الغيرة، وتُعميه فلا يعود يُقدّر مدى الحرج الذي يضعني فيه باستمراره بالرنين على رأسي باتصالاته المتواصلة، ما دعاني إلى تعوّد ضبط هاتفي المحمول على وضع الصامت، حتى أفرغ له.. فيُبادرني يومياً بنفس اسطوانة اللوم المعتادة، والتحقيق الدقيق حول تفاصيل صباحي، بسؤاله عن أدق الأشياء، ابتداء من أسماء الأطباء والموظفين الذين التقيتهم وصولاً إلى كوب شاي الصباح ومع من شربته.. اعتدت على مُضايقاته تلك، واعتبرتها جزءً من شخصيته لا أملك تجاهها شيئاً سوى تمريرها بهدوء.. لا أدري كيف لا أثور في وجهه وأخبره بأنه يخنقني بأسئلته تلك.. وأنه شكاك ولا يثق بي إلا في لحظات تواجدي معه فقط.. رُبما خوفاً من فقدانه؟ لا أعلم، ولكن

الأكيد أن الفقدان يرعبني، خاصة فقدان الحُب والاهتمام.. وليس لي منه في حياتي ذلك النصيب الكبير.. ما يدعوني للصمت تجاه كل ما يزعجني منه.. مكتفية بنعمة وجوده في حياتي حتى لو كان هذا التواجد مصدر قلق لي أحياناً، فعلى كُل الأحوال لا يُهمني من أمر صالح إلا تواجده فقط، أما مزاجه فليس ذا أهمية عندي. لكن ذلك اليوم لم يكن صالح أو أسرار هما المتصلين! أتتني إحدى الممرضات تُبلغني بأن أُمي تطلبني على هاتف المستشفى.. نظرت في هاتفي المحمول فإذا مُعظم الاتصالات من رقم هاتف بيتنا، اعتراني القلق، فليس من عادة أُمي أن تُكرر الاتصال بي هكذا، أسرعت أُجيبها، فإذا هي منهارة تبكي وتُعاجلني بخبر سقوط بسمة من السطح. لم أُمهلها لتُكمل، قاطعتها منهية المكالمة بعد أن أخبرتها بأني قادمة على الفور. منذ لحظة تلقي لخبر سقوط بسمة وحتى وصولي للبيت ولا شيء أمامي سوى اللون الأبيض والفراغ.. استحال كل شيء إلى ضباب. وحدها الحادثة سرقتني، فلم أعُد أرى ولا أشعر بشيء سواها.. فجأة صارت الرياض مدينة ضبابية.. طُمست كُل معالمها وتفاصيلها.. صفحة ناصعة لا أحرف بها. مدينةٌ خرساء لا تعرف الصخب. صمت عمّ الكون. وحده ذلك الطنين المتصل الذي صم أذنيّ عند تلقي الخبر صار يزداد علواً مع مرور الوقت ولم يتوقف إلا عند وصولي للمنزل، وربما لم يتوقف حينها ولكن ضجة الحادثة طغت عليه.كان الطريق إلى البيت طويلاً يومها، على غير العادة، أو لِنقُل أطول مما اعتدته. قيّمت الوقت بإحساسي،فكان ممطوطاً للغاية، وكأني على طريق سفر إلى المجهول. فسّرت ذلك لاحقاً بأنه استعجال مُبالغ فيه للوصول رُبما، أو غوصاً عميقاً في القلق، ما جعل الوقت يبدو غير خاضع لقياساته المعهودة.. كُنت مشتتةٌ في

الطريق، لا أستطيع التركيز، بل لا أرى ولا أشعر بشيء من الأصل، فقط أتصور أن الأمر غير حقيقي، وأُمعن في تصوري هذا فلا أُجيب على الهاتف المحمول إذا ما اهتز معلناً اتصال، مُرتاحة لقُدرتي على تأجيل تأكيد الفاجعة. لا أذكر كيف استأذنت من رئيستي، ولا كيف خرجت، ولا أدري من أوصلني إلى المنزل.. أمر واحد علق بذاكرتي وقتها، وهو اتصالي بأُختي هدى لأطلب منها الحضور إلى الرياض. يومها أصرّت لتعرف ما بي، غير أني لم أقوَ على قول شيء.. أخبرتها بسقوط الصغيرة فقط، متجاهلةٌ أي توقعات أو تفاصيل أُخرى ترتبت على السقوط. تقول أُمي لي فيما بعد بأنها أبلغتني بموت بسمة الفوري وقت اتصالها بي في المستشفى، ولكني أُؤكد لها دائماً بأنها واهمة.. فلم أسمع منها ذلك في تلك المكالمة.. رُبما حذفت ذاكرتي تلك المعلومة لتُعطيني مزيداً من الوقت للتكيّف مع الصدمة.. لذلك لذت بالصمت، بل وراوغت حتى لا أنطق بجملة موت بسمة.. فما أن ألفظها حتى يتوجب عليّ تصديقها، وما أن أصدّقها حتى يصير لزاماً عليّ أن أعيش بوجعها.. فلم العجلة إذن؟ الوجع آتٍ لا محالة، كما ولا يُمكن لأي أحد - في تصوري - أن يُعلن على الملأ خبر وفاة طفل، بقلب بارد. لو قالها سيكون كمن يقلب قانون الأمل. موت الأطفال يشبه اجتثاث جزء من عمر الآمال فينا، أو قلبٌ لمفاهيم الحياة البديهية، فالطفل يبدأ والموت ينهي، فكيف يمكن أن أُسلّم باجتماع تلك المتناقضات في جملة مفيدة؟ هكذا فسرت بقائي ذلك اليوم بكامله رافضة لتلك الجُملة.. ورُبما ماطلت أكثر في الإقرار بها لو لم يستوجب الأمر مقابلة رجال الشرطة الذين لم يرحموا فاجعتنا ويمهلونا قليلاً من الوقت قبل الشروع في التحقيقات..

كان الجسد الصغير مُسجى على الأرض عندما دخلت البيت، لم

أرها مباشرةٌ، ولكني أيقنت أنها هناك تنام تحت الغطاء الأبيض. يتحلق حولها بضعة رجال، من بينهم والدها سلطان، وشرطيين. أما الآخرون فلا أذكرهم. هم على الغالب من الأقارب اللذين هبّوا لمواساتنا ما أن سمعوا بالفاجعة. تسمرت في مكاني غير قادرة على التقدم للأمام، فما كان من سلطان إلا أن قدم لاصطحابي لداخل المنزل. كان وجهه أسوداً، ونظراته زائغة، وبدا مترنحاً وهو يمشي مُتجهاً نحوي، على وشك فقدان توازنه، حتى أني لم أدرِ أمحزون هو أو مُنشغل بأمرٍ ما؟ سمعت الشرطي يسأله من أنا، ثُم يُخبره بأنه يحتاجني لبضعة أسئلة يستوفي بها محضر الحادثة، أشار له سلطان بأن يتريث قليلاً، ومضينا للداخل.

كان المنزل مليء بالنسوة، قدمن من كل فج. بعضهن من نساء العائلة، والأُخريات من الجيران. وأُخرٍ لم أرهن من قبل. أسجيت بينهن هند زوجة أخي، الأم الثكلى. تُنقل بصرها في الوجوه أمامها، صامتةٌ وكأنما خرست. وصغيريها يروحان ويجيئان حولها. مُتسلين بالجموع التي حضرت للمواساة، غير مُدركين لما يحدث.. تمتمت إحدى النسوة وهي تُبرر سلوكهما الطفولي العابث بهيبة الموت وكأنما تعتذر بكلماتها للموت ذاته:

(لو ما قلوبهم البيضاء، كان ما يكبرون..).. صمتت قليلاً، ولما لم يُعلّق أحد على جُملتها أضافت وهي تسوي غطاء رأسها، تُدنيه على حرجها:

(ما يفهمون يا روحي صغار)، ثُم انهمكت في بكاء شديد، لا أدري هل ترثي به حالنا، أم تعليقاتها التي لم يردّ عليها أحد. ساد الصمت بعدها، وكنت أنا باقيةٌ على حال ذهولي لا أقوى على طرح الأسئلة، فالإجابات لن تكون سارّة بالتأكيد، وبي من الوجع ما يكفي

بل يفيض عن حاجتي للاستزادة. صرخة مكتومة هربت من صدر هند وهي تحادثني ما أن لمحتني.. قالت تبثني حرقتها:

(راحت بسمة يا آمنة.. انقطع قلبي) ثُم غابت عن الوعي. عاجلتها النسوة وأمي بينهن، يرششن على صدرها ووجهها بعض الماء المُعطّر بالزعفران.. عندها أفاقت ولكنها عادت لحالة الخرس. كانت ترتجف من شدة البرد، رغم هجير شمس الظهر، وصيف الرياض الخانق. غطتها النسوة بأغطية ثقيلة ولكن بردها لم يدفأ، وكأنما ينبعث من روحها.. فكيف الطريق إلى تلك الروح المشروخة؟

وحدها تشاندرا الخادمة السيريلنكية كانت غائبة عن نظري. بحثت عنها لتُساعدني في إيصال إبريق الماء للرجال بالخارج، فوجدتها في المخزن، زائغة النظرات تنتفض، تهذي بكلمات لم أفهمها، وتُحرك يديها بعصبيةٌ شديدة، وهي تُنقِّل بصرها في أرجاء المكان.

(مسكين بسمة.. مسكين). كانت تلك الجُملة الوحيدة التي نطقتها بعربية مُكسّرة، أما عداها فكانت كلمات أعجمية مصحوبةٌ بصرخات ذُعرٍ هربت من جوفها. هدأت من روعها، وطلبت منها معاونتي، فقامت وهي مُترددة، ثُم ما لبثت أن استعادت بعضاً من نشاطها، وراحت توصل الماء للرجال، غير أنها بقيت على حال الذهول تلك بضعة أيام، ثم أضربت عن العمل، وقررت الرحيل إلى ديارها، فما كان من البندري أخت أسرار والتي كانت متواجدة معنا أيام العزاء إلا أن أخذتها في منزلها لحين يفرغ سلطان لعمل إجراءات خروجها من السعودية.. كل شيء تغيّر في منزلنا بعد رحيل بسمة، لم نعد كما كنا، حتى تشاندرا الخادمة لم تحتمل البقاء في البيت بعد الحادثة.

لم تُسفر التحقيقات عن أي أمر يُثير الريبة، فجدار السطح مُهيأ بانخفاضه الشديد للتسلق من قبل الأطفال، وبسمة قد تغيبت عن

المدرسة يومها بسبب ارتفاع درجة حرارتها، والمنزل كان خالياً إلا من أمي بالدور السفلي وتشاندرا والصغار معها، بينما صعدت بسمة لغرفتها عندما حضر والدها مبكراً من عمله بحجة حرصه على مرافقة ابنته المريضة لحين عودة أمها من العمل. يقول سلطان انه توجه للحمام للاغتسال وقت صلاة الظهر، ولما خرج لم يجد بسمة، فظنها قد نزلت للأسفل مع جدتها وأخويها الصغيرين، فلم يهتم، وراح يُصلّي ثُم هبط باحثاً عنها، فوجدها مسجاة على الأرض في فناء الدار. كُنت أعرف أنه كاذب بشأن الصلاة فهو لا يُصلّي إلا في المناسبات فقط، كالعيد والتراويح في شهر رمضان، أما الصلوات اليومية فهو لا يؤديها. توقّعت أنه رُبما غفي قليلاً وقت وقوع الحادثة، وتهرّب من قول ذلك خشية أن يُتهم بالإهمال، فعلّق إهماله للصغيرة، على شمّاعة الواجب الديني.

أُمي أخبرت رجل الشرطة لما كان يُحقق معها بأنها رأت والدي المتوفى، في منامها ليلة البارحة، وقد كان مُستبشراً، مُتزيناً بحُلّة جديدة، يرشّ الأرض بالماء ويسويها، ثُم يفرش عليها بُسطاً خضراء، وكأنما يُهيئ المكان لاستقبال ضيوف قادمين.

(وجهه مثل البدر بنوره واشراقه.. كنه بيقابل حبيب). قالت أمي للشرطي، وأضافت وهي تتهدج بالبكاء ناظرةٌ نحوي:

(ظنّيت أن ساعة منيّتي قربت يا بنتي، وأني أنا اللي بأموت). حوقل الشرطي لما سمع منامها، ودعاها للصبر والاحتساب، ثُم أنهى أسئلته معها، وطلب تشاندرا الخادمة، والتي كانت الشخص الوحيد الأكثر ملائمة للبس التهمة من وجهة نظر الشرطة، غير أنها نجت من ذلك بعد أن شهد سلطان بأنها كانت بالأسفل بصحبة الصغار، مؤكداً للشرطي بأنه لم يلحظ أي سلوك مُريب منها طوال فترة خدمتها لدينا،

وأن علاقتها بالصغار جميعهم جيدة جداً وأنها لا يمكن أبداً أن تكون سبباً فيما حدث لبسمة. أُغلق محضر وفاة الصغيرة على أنه موت طبيعي ناتج عن ارتطام جسدها بالأرض إثر سقوطها من السطح، وأنه لا توجد أي شُبهة جنائية في الحادث، وغادر رجُليّ الشرطة منزلنا بعد جولة سريعة تفقدا فيها الدار، غير أني لم أرتح للقلق الشديد الذي اعترى تشاندرا، خاصة بعد أن أضربت عن العمل وطالبت بترحيلها إلى بلدها، فسرت ذلك بأنه رُعبٌ اعتراها من مكان الحادثة، بينما استسلمنا لطلباتها، فانتقلت لمنزل البندري لحين إنهاء أوراق رحيلها. وهكذا راحت الأيام تواري بتواترها المستمر ملامح الحادثة، وتمحو ما علق بنا من ألم جراء فقدان بسمة المفاجئ، تاركةً أسئلةً معلّقة في ذهني المشوش، لا تجد لها إجابات شافية..

(هذا هو حال السطح مُنذ ولدت بسمة.. وتلك كانت بسمة بعيدةٌ عن هاجس تسلقه دائماً.. فلِم تسلقته وهي في حالة إعياء شديد ومرض؟ هل أخرجتها حرارتها المرتفعة عن تفكيرها السليم؟ أم أن في الأمر ما لا أعرفه، وقد دُفن معها في القبر؟!).

أفقت من ذكرياتي تلك وبصري معلّق بصور بسمة المرصوصة على أرفف مكتبتي الصغيرة في غُرفة نومي.. لا تزال ابتسامتها مرسومة في شفاه ذاكرتي، تفترّ لي شاحبةٌ كلما لاحت ذكراها من بعيد.. غابت منذ سنة، ولكنها لا تزال تزورني في المنام من آن لآخر.. أراها في الحُلم ذاته، لا تتغير تفاصيله أبداً.. السماء تمطر مطراً غزيراً، وهي تركض في فناء الدار وأنا أُحاول اللحاق بها، تتوقف قليلاً وتلتفت إليّ، فتبدو بابتسامتها الشاحبة وكأنها الموناليزا، لا أدري أفرحة هي أم محزونة، تعود تُعطيني ظهرها وتركض ثانيةٌ باتجاه الدرج، تتسلقه وأنا خلفها.. تصلني ضحكاتها من بعيد بصوت بدا لي مختلفاً بعض

الشـيء عن صوتها الطبيعي، وكأنه صوت معدني، يرن في أذنيّ رنيناً حاداً. تنصرف إلى السطح حيث غرفتها مع والديها، ثُم تختفي عندما أدخل السطح خلفها، فأبقى ذاهلةٌ أبحث عنها.. صوتها لا يزال موجوداً، الرنين لازال يصلني، ولكن بشـكل بكاء وليسـت ضحكات.. أجد في البحث عنها ولا أجدها.. تغيب عن ناظري.. أبقى هُناك بعض الوقت أبحث عنها في زوايا السطح الغارقة في مياه المطر، ولكنها ضاعت.. وشيئاً فشيئاً يختفي صوتها أيضاً.

* * *

(7)

تقلّبت في فراشي وأنا أشعر بالضيق والقرف من نزفي الشهري، فقررت أن آخذ حماماً دافئاً علّه يساعدني في الاسترخاء قليلاً، فالغد يـوم مجهـول لا أدري مـاذا يحمـل لـي. هـل يعجّل الله بقضائه ويكون يـوم الغـد عـزاء فـي موت سـلطان أيضـاً، أو تقرر لي الأقدار مزيداً من الشقاء فيُفيق ويعود يقاسمني ذات الحياة التي أحياها؟ لا أدري.. الوقت وحده كفيل بالإجابة عن هذه التساؤلات المُربكة.

تسـللت من غرفتي بهدوء مسـتغلة وقت أذان العشـاء لعلمي بأن أمي في الغالب منشغلة بأداء الصلاة ودخلت الحمام. خلعت ثيابي على عجـل وفتحـت الـدش ودخلـت تحت المياه الدافئة التي راحت تُرخي عضلاتي المتشنجة شيئاً فشيئاً، وما هي إلا ثواني حتى توقف تدفق الماء تدريجياً.. اعتراني غضب شديد، ورحت ألعن فقري الذي لا يمكنني مـن القـدرة علـى إصلاح خلل السـباكة فـي المنزل إلا بحلول رخيصة ومؤقتة لا تلبث أن تفسد بمجرد مرور بعض الوقت على الإصلاحات. صرخت بأعلى صوتي أنادي أمي لتفتح المحرك الخاص بضخ المياه أمـلاً فـي إكمـال حمامـي. تناهـى إلى سـمعي صـوت أمي وهي تصفق بكفيها لتعلمني بأنها لا تزال تصلي، وما هي إلا لحظات وهي تجيب بأنها ستفتح المحرك.. هدأت قليلاً.. فإذا بأصوات قرقعة الأواني في المطبخ تتداخل مع أصوات الصلوات الصادرة من ميكرفونات المساجد المحيطة ببيتنا والواقعة على مدى قريب بما يكفي لوصولها لأذني دون القدرة على فهم أي منها لكثرتها وتداخلها، إذ كانت قرابة ثلاثة أو أربعة

مساجد. تساءلت في انفعال: ما الفائدة من تلك المُكبرات الصوتية العالية إذا كان المصلين في الداخل يسمعون الإمام دون الحاجة للمكبر الخارجي والآخرين في منازلهم لا يستطيعون فهم الأصوات المتداخلة؟ نفضت الفكرة من رأسي وأنا أتصور هدى أختي تراقبني خاصة وهي على وشك الوصول.. تخيلتها تنهرني وتصفني بقليلة الدين وهي تسمع تساؤلاتي الوقحة تلك. هدى التي تحولت بنسبة مئة في المائة من الاستعداد للحياة إلى الاستعداد للموت، متناسية أن الدين كما يتوعد بالنار كذلك يُبشر بالجنة. تغيّرت بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ظهرت عليها معالم تحوّل بسيطة بعد زواجها بسنوات ثُم ما لبثت تُمعن في الانغماس في التطرف حتى انجرفت بعيداً عن تلك الحالمة التي كانت تنبض حياة..وصارت تُقلل شيئاً فشيئاً من زياراتها لأمي في الرياض تحاشياً للمنكرات الموجودة في بيتنا على حد قولها، واستبدلت وصل والدتها بالمقابل الجهادي الذي يقيها إثم قبولها منكر سجائر سلطان، وصور المذيعات الفاسقات التي تُبث من تلفاز بيتنا، غاضة النظر عن توسلات أمي لها بإحضار صغارها في مواسم الأعياد ليؤنسوا أحزان وحدتها، رافضة الحضور إلا إذا وعدتها أمي بالخضوع لكل شروطها فتعلن حالة استنفار في البيت وتُبعد سجائر سلطان، ويقفل التلفاز إلا من بعض أوقات يسرقها صغارها خلسة عندما تنام فيفتحون الصندوق الملون ويصطفون أمام سحر أفلامه الكرتونية.

ازدادت حدة توتري جراء انتظار عودة مياه الدش فناديت على أمي ثانية فإذا بها تُجيب وقد بدا الضيق على نبرات صوتها إذ قالت بنزق:

(فتحناه.. أصبري يا مال قل الصبر..).

ألجمني صوتها الغاضب فاستندت على حافة الجدار ورحت أُحدّق في صورتي التي بدأت في الوضوح بعدما انجلى البخار عن

المرآة المُعلّقة في الحائط قُبالتي.. هدأت قليلاً وأنا أسمع هدير المياه وهي تتسرب ببطء لتملأ الأنابيب، بينما راح انعكاس صورتي يطالعني ويستدرجني لذلك اليوم البعيد.. ذلك اليوم الذي باغتني فيه وجهي فجأة.. ليتراءى لي كطيف غريب عنّي.. يحمل الجديد، والمُربك معاً. حدث ذلك أثناء زيارتي لبيت أسرار، بعد أن دعتني لتناول العشاء في إحدى الأمسيات. لم أزرها في منزلها إلا بعد أن عملنا معاً في نفس المستشفى. كان سلطان وأمي يرفضان زيارتي لها بالرغم من أنها لم تنقطع عن زيارتنا بصحبة والدتها خالة (دواجة)، إذا ما حضرت الأخيرة في مناسبات الأعياد ورمضان وغيرها.. ولكن ذلك لم يشفع للسماح لي بمُبادلتها الزيارة، فهما يريان أنها مُجرد ابنة دلالة، وأنها لم تكن لتحضر لزيارتي لو لم تأت أمها لعرض بضاعتها في منزلنا، لذلك منعت من زيارتها بعد وصولي سن البلوغ إلى أن انتقلت أسرتينا كُلاً إلى سكنها الجديد، وكذلك بعد أن زاملتني في العمل أو لنقل زاملتها فهي التي اقترحت عليّ أمر الوظيفة، ورتبتها لي لما لاحظت سوء حالنا المالية. بعد عملي بأشهر سُمِح لي بالزيارة أخيراً. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أزورها فيها، في بيتها الجديد. استقبلتني مرحبة يومها.. وابتسامتها ترتسم على وجهها المليء بالبشر.. هكذا هي دائماً امرأة في جيدها حبلٌ من فرح.. تصنع من المرح عقوداً تتزين بها.. وأقراطاً تُعلقها في أذنيها، فلا تعود تسمع سوى الضحكات والأغاني..وتغدو غادةٌ لا ينازعها أحد على عرش الحياة. لم تُغيرها تجربة الطلاق أبداً، بقيت على روحها الحلوة، وكأنما أُخرى غيرها طُلِّقت. عادت إلى منزل أهلها تحمل رضيعها معها، وترسم خطاً مستقبلياً جديداً لحياتها القادمة. قالت لي حينها:

(أنا لا أعرف أن أعيش بلا حُب.. والحقيقة لم أعد أُحب

زوجي. مللته). هكذا بكل بساطة تطوي أسرار صفحة من عمرها، وتفتح أُخرى. لا تُقلقها القرارات أبداً. دائماً في الكون مُتسعٌ لأحلامها. تشبثت بآخر تعرفت عليه مؤخراً إثر برود علاقتها العاطفية مع زوجها، وقررت أن ترحل إليه، ولو في خيالها. تقول أنها لا تقبل الخيانة، ولا تُريد أن تجمع بين الرجلين معاً في مشاعرها، كما أكدت لي وهي تضحك يومها بأنها كذلك لم تعُد قادرةٌ على مُضاجعة زوجها، مُبررة ذلك بأنها ليست جسد فقط إنما روح. لم تعطني أسباب أكثر أو أكبر لهجرها لزوجها، لم تفتعل أي مبررات بينما كان بإمكانها فعل ذلك حيث زوجها مليء بأمور كثيرة يمكن أن تُعينها في تبرير هجرها له، كتدخينه الحشيش، وتركه الصلوات، كذلك سهره خارج المنزل أغلب الليالي، وغيرها من الأسباب التي يمكن أن تُعين امرأة على وشك الطلاق في تجهيز إطار يجمّل صورتها الاجتماعية المستقبلية ويحميها من سخط الناس، لكنها لم تفعل.. انسحبت بهدوء، حتى أنها إذا جاء ذكر طليقها تقول بابتسامة ناعمة ورضا لا يفارق عينيها:

(راح في دربه الله يستر علينا وعليه ويعوضه أخير منّي)!

هذا أكثر شيء يبهرني في أسرار على بساطتها.. الآخر ليس وصيّاً على ضميرها.. وحدها تعرف ما تريد وتقرر ما تفعل دون انتظار مباركة من حولها.

استقبلتني في بيتها ذلك اليوم وصحبتني للداخل.. كانت تسبقني ببضع خطوات مُتجهةٌ نحو المشجب، تُعلّق عباءتي عليه.. تبعت خطواتها وأنا أُعدّل خصلات شعري المُبعثرة بيدي، وأرتب هندامي المُرتبك.. وعند ولوجي مجلس الضيوف، التقيت امرأة استوقفتني لوهلةٌ ما أن وقع بصري عليها.. كان وجهها هادئ الملامح ينم عن بعض الجمال، وجسدها يتأرجح بين الامتلاء والسمنة. وما هي إلا

ثانية، وأنا أتعرف عليها.. لم تكن سوى انعكاس غير متوقع لي، في مرآة المدخل الطولية المعلقة في الجدار المُقابل.. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها انعكاسي دون توقعات مسبقة، أو تخطيط مُبرمج لالتقاط شكلي بمُعطياتي القديمة حوله.. أخذني قارب ذهولي إلى موانئ بعيدة، لم يسبق أن زرتها.. وقفت عند صوري المرسومة في براويز الذاكرة.. فتاةٌ هُلامية لا شكل لها.. تُسكب في أي قالب جاهز من الآخر.. فتصير كيف أراد لها أن تصير.. لم يكن لها قالبها الخاص أبداً.. ويحدث شؤماً أن تكون هذه الفتاة خجلى، أو مُنطوية، فيحول ذلك دون تعبير الآخر عن جمالها.. لتعيش العمر كله دون أن تُدرك احتمالات أن تكون حلوة.. أميرة نائمة في سبات الهامش.. لا يستدل عليها أحد.. فلا تأتيها قُبلة الحياة أبداً.. أعلم بأن وزني زائد عن الحد الطبيعي بعض الشيء، لكن جسدي لم يكن مشوّهاً بدرجة واضحة. لا يزال هُنالك أمل في إصلاحه، أو حتى اعتباره جذاباً للبعض نوعاً ما، فأماكن اكتناز الشحوم لديّ، مُحببة لدى البعض في بلادي.. في الوسط.. الوركان والأرداف تحديداً، أما نهدي وخصري فكانوا أميل للوزن العادي.

كان ذلك اليوم هو تاريخ ميلاد رؤيتي الضبابية لذاتي كامرأة.. ضبابيةٌ لأن الصورة غير واضحة كما ولم تثبت. كانت لقطة سريعة، لم يُمهلني الوقت لأغترف من نبعها حد الارتواء. أشغلتني الصورة المفاجأة لتوقعاتي، ما دعاني يومها إلى استدراج (أسرار) للحديث عن الجمال. متلعثمةٌ قلت وأنا أقلب نظري في غرفة أسرار حيث جلسنا:

(تصوري.. لا أملك من الماكياج إلا قلم أحمر شفاه واحد، ومسكرا أتتني كهدية مع عطرٍ ابتعته وبضع أدوات بسيطة لا أستخدمها إلا نادراً..). صمتْ قليلاً أرقب كلماتي، وأُحصي وقعها عليها..لم تُعلق

(أسرار) على كلامي، رغم عشقها للحديث والماكياج معاً.. رُبما ظنّت أن لِفاقتي علاقةٌ بالأمر، وتحاشت أن تدوس عليها بثقل كلمة غير محسوبة.. الجميع على علم بضيق ذات اليد التي أُقاسي منها والظاهرة في ثيابي الرخيصة، وحُليّ النُحاسية المتوارية، وعدم امتلاكي لسائق أو سيارة أيضاً.. حاولت كثيراً أن أستتر فلم تُجدي مُحاولاتي.. تفضحها حالة ترقب آخر الشهر التي ترتسم عليّ قلقاً يستجدي مرور الوقت ليلتقي الستر.. بضع ريالات تسد جوعي أنا وأمي وتفي بمصاريف الدور الذي نسكنه، بعد أن كف سلطان يده عن ما يخصنا بحجة أنه رب أسرة ومحتاج لكل قرش لكي يُعيل أبناءه وزوجته. وليبقى مُرتبي الشهري الأمل الوحيد الذي أوثث به زوايا كرامتي وغُرفها المُفرغة، فيقينا شر الحاجة إلى الناس.

طال صمت أسرار ولم تُجب عن سؤالي في ذلك اليوم.. لعلها ظنّتني أحكي لمجرد الكلام فقط، فآثرت الصمت.. كُنّا في غرفة نومها، قمت مُتجهةٌ نحو التسريحة حيث تصف أدوات زينتها.. تشجعت قليلاً، وأنا أُعطيها ظهري فأحجب جزء من حضورها في داخلي وقلت مُترددة والأحرف تتدافع بين شفتي مُحاولةٌ النكوص إلى الصمت:

(بصراحة.. ما رأيك بشكلي؟). لفَظتُ السؤال وبقيت حيث أنا في الاتجاه المعاكس لها متشاغلةٌ بالتقليب في أصابع أحمر الشفاه المرصوصة أمامي.

أسرار وأنجيلا هما من سمحت لهما بالدخول إلى صومعة نفسي المُغلقة. أنجيلا حظيت بالوجع، وأسرار ببوح العواطف. أخبرت الأخيرة من قبل عن علاقتي بصالح. استدعى الأمر التحدث عنه، ليس ترفاً أتباهى به كما تفعل غالبية البنات، ولكن لأتأكد من أن هنالك شاب بالفعل على علاقة بي، ومستأثرٌ باهتمامي. كانت فرِحةٌ

وهي تستمع إلى بوحي يومها، وأخبرتني بأني الآن بدأت في التماثل للشفاء. قالتها ساخرةٌ وهي تستغرب من كوني لم أُقِم علاقة مع أحد رغم اقترابي من الثلاثين، فلم تستوعب أن أمراً كهذا يمكن أن يكون طبيعياً على حد تعبيرها، والحقيقة أنها كانت مُصيبة فيما ظنّت إلى حدٍ ما، فلم يمنعني عن تلك العلاقات رادع اجتماعي أو ديني، أو عدم توافر الآخر.. بل خلل نفسي ألمّ بوجداني كله، حتى أنّي لم أعد أدري هل يمكن بالفعل أن يستملني رجل أم أني وضعٌ خاص واستثناء بين الإناث؟ لم يحدث أن راقني رجل، أو حتى استثارني بأي شكل من الأشكال، كلهم كانوا خُشبٌ مسنّدة، لا تُحرّكني مهما بلغت من أعالي جبال التميّز والوسامة. ضحكت أسرار قبل أن تُجيب عن سؤالي، وقالت بِخُبث:

(ما حكايتك اليوم؟ أأنت عاشقة، أم مخطوبة؟!). لم يأت جوابها بحجم ارتباكي، ما شجعني للالتفات نحوها، لأُجيب على سؤالها بعد أن مهدت لي بمرحها، وأزاحت حرجي المعتاد:

(لا هذا ولا ذاك.. ليس إلا صالح.. وهو ليس خطيبي، ولست متأكدةٌ من أنه حبيبي حتى الآن.. مجرد خاطرة جالت بفكري.. لا عليك.. إنسي).

(بصراحة، أنت زينة يا آمنة، بس ما تحرصين على التمكيج والتبودر.. وتخففين بعد أكل الكاكاو شوي..) قالت جملتها تلك ضاحكةٌ، ثُم راحت تحكي لي عن خبايا فن التجميل.. في الوجه والشعر.. والثياب، وأنا أتابعها صامتةٌ، أهز رأسي موافقة على بعض ما تقول، وأرفع حاجبي تعجباً لقوس قُزح الدهشة الذي يتلألأ مُشرقاً في سماء جديدها، ما أن تنثر كلماتها الملوّنة. كفي تعبث في خصلات شعري المنسدلة على كتفي، أُخلّل أصابعي بينها، وعيناي تتابعانها،

وهي تستعرض أدوات ماكياجها أمامي لتُدلل بها على بعض ما تقول.. أخذني تفكيري بعيداً ليُعيدني لأيام زمان لمّا كُنّا أنا وأسرار نلعب في فناء دارنا لعبة (الدبق)، كانت أسرار دائماً مصدر دهشة لي. كُنا نجمع قطع الخرز المُتساقطة من الحُليّ القديمة، أو التي نجدها مُلقاة في الشارع، ونضعها في عُلب الحليب المعدنية الفارغة، ونحفر حفرةٌ صغيرة في التراب ثُم نتبارى على الدقة في إسقاط قطع الخرز فيها، من تُسقط القطعة الأخيرة بحركة واحدة فقط تكسب الخرزتين معاً. تُشبه لُعبة الغولف في تقنية إصابة الهدف، ولكننا نستخدم أصابعنا في التصويب بدلاً من عُصي الغولف، بعدها نباهي بعضنا بكثرة ما استطعنا جمعه من الحبّات. كان نصيب أسرار أكثر منّي دائماً، بالرغم من براعتي التي تفوقها في اللعب، وذلك بسبب أنها كانت دائمة التنقل مع والدتها في بيوت الجيران والسوق، ما يُتيح لها فرصة جمع خرزات أكثر مما بحوزتي. كثيراً ما بكيت وأنا أطلب من أُمي أن تأخذني للسوق لألتقط بعضاً مما تساقط هناك من الباعة، ولكنها كانت ترفض غالباً بحجّة أن لا مال لدينا، أو أن دخولنا للسوق دون حاجة أمرٌ لا يجوز، فكنت أستسلم وأروح أُقايض أسرار على بعض ما لديها من الخرز، فأُعطيها بعضاً من (القريض) نوع من المُكسرّات الرخيصة تبتاعه أُمي أحياناً، وتُعطيني بدلاً منه حبة خرز أو حبتين.

أنا وأسرار نكمل بعض نوعاً ما. تُحب التحدث، وأنا أُجيد الإصغاء.. منطلقة لأبعد الحدود، فتحرك جمودي بانطلاقتها.. عاشقة حد الجنون، وأنا مترددةٌ حد الملل، أو رُبما الجزع.. هي لا يدخل الآخر في حساباتها إذا ما قررت أمراً ما، أما أنا فالآخر هو من يُقرر لي.. الآخر دائماً يسبقني مهما كانت الظروف.. كنت أرقب أسرار وهي تناقش الآخرين بثقة شديدة توحي لمن يسمعها بأنها على حق حتى لو

لـم تكـن كذلـك بينمـا أبقـى أنا عاجزة عن التلفظ بأي كلمة على الملأ حتى لو جاهدت لفعل ذلك..

توصلت إلى أني مسلوبةٌ منذ زمن.. ميتةٌ في ثوب حياة.. دميةٌ جامدة.. والدمى لا تختار، لا تقرر، ولا تبدي رأي.. لذا بقيت أسرار صندوق أحلام متحرك يمشـي أمامي يبهرني بقدراته السـحرية.. وكان أكثر سحر لا يزال ينثره ذلك الصندوق وربما كان الأهم على الإطلاق، أن أسرار تجذبني إليها بشكل خاص، حتى أني أرتبك من بعض هذا الانجذاب إذا ما ضبطت نفسي أتأمل جمالها المُثير، وبشرتها السمراء الناعمة برغبة حيرى.. وإذا ما ارتسمت لي صورتها في لحظات توقي الجسـدي، كأنثى ترمز للحُب والأمان معاً.. تُشـعلني وتطفئني في آنٍ واحد.. أترقب كل ما تقوله وتفعله بشـغف عاشـقٍ من طرف واحد.. يُـدرك أن معشـوقه ليـس لـه.. فيبحـث بين ثنايا كلماتـه، وتصرفاته عن سـقطةٍ يُفسـرها حسـبما يقتضي الحال، مُعلقاً عليها وهمه.. لم أتوقع استجابة أسرار لي، كذلك لست جريئة بما يكفي لأفتح الأبواب على جهنـم لا حيلـة لـي بإخمادهـا إذا ما اشـتعلت، لذا لُذت بالحلم فقط.. يكفينـي وجودهـا حولـي.. أسـند ضعفـي على قوتها، وحُزني يرتشـف قهوته من أباريق السـعادة المنسـكبة فيها.. بينما في داخلي بقيت هي بضحكتها الفاتنة مصدر إلهام لبعض خيالاتي العاطفية، أتصورها كيف شئت ومتى ما أردت بأي صورة تطلبها مُخيلتي الولهة.

تغيرت أحاديثنا أنا وأسرار، عندما بلغنا العشرين. كبرنا فتصورنا بأننا يجب أن نتغير فتغيرنا، أو هكذا بدا الأمر لي. صارت أسرار تتحدث عن الحُب كثيراً، وتحكي لي عن إبن جيرانهم الذي أُغرمت به. قالت بأنه يُشـبه المطرب اللبناني الوسـيم وهي تُشـير إلى صورة المطرب، وحكـت لـي عـن قُبلاتـه الحـارّة التـي يُمطرها بها إذا ما تقابلا خلسـةً.

كانت تحكي وهي ترفع صوت المُسجّل الذي لقمته شريط عبدالحليم حافظ، حيث كان يشدو بأغنية (أول مرة تحب يا قلبي)، فكانت تنتشي مع المقطع الأول وترددده وكأنما تعيشه، أو لعلها تعيشه.. تتنهد وتُغني بصوت عالي..(أول مرة تحب يا قلبي وأول يوم أتهنى..

ياما على نار الحُب قالوا لي.. ولقيتها من الجنة..

أول مرة..أول مرة..)

كُنت أُصغي إلى غنائها بانسجام كبير، حيث كانت تملك صوتاً مُخملياً رائعاً يبدو وكأنما يتسرب إلى إحساسي مُباشرة دون المرور بالسمع، أما حديثها عن الحُب والقُبل ذاك فلم يكن ليُبهرني أبداً، لا أدري لِمَ لم يُحركني ما حكته عن حبيبها ذاك. رُبما لأني لا أتصور أن الرجل ممكن أن يكون مُغرياً أبداً، أو قابلاً لإثارة أشواقي ورغباتي. ربما لأن كل الرجال يلجون بوابة مخيلتي مرتدين وجه أخي سلطان... لا أدري! لذا ما أن تلمح أسرار مللي من حديث الحُب ذاك حتى تُغيّر الموضوع مُباشرةٌ. قالت يومها لتفتح موضوعاً آخر حول معاني الأسماء:

(لكل امرئ من إسمه نصيب.. إلا أنا.. ليس لدي أسرار.. كل ما بداخلي مكشوف، أو هكذا يبدو لي!). صمتت قليلاً ثم أردفت ضاحكةٌ:

(ما غير بر بر بر بر... ما اعرف أسكت).

ضحكت بدوري على ما قالته، وذهني منصرف لمضمون حديثها حول مداليل الأسماء. بقيت تُثرثر، بينما سبحت في خيالي الخاص. تساءلت في داخلي مُستنكرةٌ، وطبول الماضي تقرع ضحكات سخرية من دلالات الأسماء:

وهل لي يا تُرى من أسمي أي نصيب؟. مدن الأمن ترفض سكناي

منـذ ولـدت.. حتـى أن أُمـي دون قصـد أوحت لي بأنها لم تكن ترغب في حضوري إلى دُنياها، فزعزعت بذلك أمن وجودي، وصرت أخشى أن أُرفـض علنـاً فـي يـوم مـن الأيـام. تُـردد أمي على مسـامعي قصص خيباتهـا معـي.. تقـول (جئـتِ يـا آمنة للدنيا بالخطأ، كُنت قد قررت أن لا أُنجب بعد زواج والدك من أُخرى.. انفصلت عنه سنين أحمل معي صغيرين لا ذنب لهما في الحياة سوى أنهما قدما إليها بعفوية.. رماني والدك للمجهول لما رفضت مشـاركته قهر صِبا الأُخرى مُنسـكباً على تجاعيد سـنيني وهمومي.. قال يومها البيت بيتها شـئتِ أم أبيتِ.. فما كان منّي إلا أن لملمت بقايا عزّتي وانسحبت إلى بيت أهلي.. لأعيش فيـه مُعلّقـةٌ بحبـل الخـوف من مصير مجهـول.. لا أقوى على الإصرار على طلب الطلاق، خشـية أن يحرمني طفليّ..، ولم يكن هذا ليكفيه فيدعني وشـأني، بل راح يُمرر قسـوته سـكيناً تجزّ لين ضعفي ببطء، فيستمرئ في تعذيبي، ليأتي وقت يشاء ويأخذهما، فيغيبان عنّي أسابيع، لا أدري ما يحدث لهما فيها.. لم يتفق مع الأُخرى كما ولم يُرزق منها بالأبنـاء، مـا دعـاه إلـى تطليقها بعد سـنين، والعـودة إليّ مكراً، يطالبني بالرجوع إليه.. ولم أكن في وضعٍ أفضل يُشجعني على رفضه، فعُدت لـه خانعـةٌ، أجـر حقائـب خيباتـي معي، وكل مـا يعنيني هو النوم تحت سـقفٍ واحد مع سـلطان وهدى، عيني اللتين أُبصر النور بهما.. وكان أن أتيتِ أنت بالخطأ بعد كل تلك السنين العاقر.. لم أُرتب لمجيئك يا ابنتي، فوالدك كان قد شاخ، وخشيت أن أُنجب المزيد منه، فيرحل ويتركني بهمّ رعايتهم وحيدة. ولكن الحمد لله على قدومك، أنت هدية الرحمن لي، لا أدري لولا وجودك كيف كان لي أن أعيش).

(أتيـت بالخطـأ).. تتـردد كلمـة أمي تلك في ذهني تسـجل تقارير طويلة تحكي حالي، كُلها تحتمل أن تكون الكلمة عنواناً لها..

بالخطأ أتيت للدنيا.. وهل يُخطئ الله فيخلق كائناً بالخطأ يا أمي؟؟ علمتني أن الإله معصومٌ من الأخطاء، وتقولين أنه خلقني خطأً! وقلتِ لي أنه يعلم كل شيء، فهل عِلم عن ما وقع عليّ ولم يُحرك ساكناً.. وأكدت لي مراراً وأنت تسحبيني إلى سُجادة الصلاة بأنه مُجيبٌ للدعاء.. فهل تجاهل نوحي كُل تلك السنين وأنا جاثيةٌ على رُكبتي أدعوه أن يرفع الضُرّ عنيّ، وأن يرزقني نعمة النوم دون هدهدة أشباح الخوف كُل ليلة، تُنشد لي معزوفة الجزع..

بالخطأ أيضاً كُنت أنا الصُغرى يا أُمي.. لِم لم تجعليني أكبر منه؟ أو لا تجعليني شيئاً أبداً، فأكون نسياً منسيا.. ثُم بالخطأ تُغادرين البيت في ليالي كثيرة وتتركيني وحيدةٌ معه.. وقد قررتِ فجأة أن تعُديه شخصاً عاقلاً، متزناً، وأنت أدرى الناس به وبطيشه، وعبثه.. هل تُنكرين علمك بشططه؟ هل تعاميت على حين غفلةٌ عن معاركه مع أبي، وعن خلافاتهما التي لا تكفّين عن سردها لي لما كبرت، خلافاتهما التي لم تكن تهدأ أبداً حول دُخانه وعبثه وغيابه المشبوه عن البيت منذ كان شاباً يافعاً.. وإن نسيتِ، فآثار خيزران أبي – كما قُلتِ– محفورة على جسد سلطان تحكي لك ما كان.. قُلتي بأنكم كنتم كل ليلة تنامون على معزوفة شجارهما.. تنتهي بجلده حد العطب.. أو قذفه للخارج، مع قطط الشارع، ليبقى متوارياً إلى أن ينام سوط أبي، فتتسحبين بوجع أمٍ لا تحتمل بُعد صغيرها عنها، تبحثين عنه لتُعيديه إلى سقر.. هل تعاميتِ فيما بعد عن لفائفه النتنة التي يصنع بها أجنحة تأخذه بعيداً للوهم؟ وعن حبوبه البيضاء يبتلعها لتلوّن جدران ذاكرته المُظلمة، فينتشي بزيف نصاعته.. وأخيراً يا أمي تُقررين أن مثل هذا أهلٌ ليؤتمن على صغيرتك؟؟ أو أنك لم تهتمي بي أصلاً، فأنا في النهاية لست سوى محض خطأ!

آهٍ ما أكثر الأخطاء.. فها أنا أُخطئ أيضاً ولا أجرؤ على الصراخ.. وهـا أنـت يـا أمـي تتعامين دهراً عن أناتي المكتومـة، وندائي الصامت لـك أن تُنجديني مـن وحشيته، وقهـره وبُصاقه علـى جُرحي المهترئ كلمـا سـنحت لـه الفرصة..وتتجاهليـن حاجتي إلى أُمي بالخطأ أيضاً.. ألستِ أُمي؟ ألست أبنتك؟ أم أن هذا أيضاً خطأ! ألا يحق للصغار أن يُلاحَظـوا مـن قِبـل أُمهاتهـم؟ أو أن هـذا ترفٌ لا أسـتحقه؟ ألم تلمحي انهيـار مملكـة طفلتـك؟ ألـم تسـمعي صوت تحطمي يـرنُّ في مُحيطي الخرِس؟ ألم تُشـاهدي شـظايا قهري منتشـرة في أرجاء ملامحي.. ألم يُلفـت نظـرك اختـلاف مشـيتي إثـر كُل غـارة كان يشـنّها عليّ؟ أم أنك من الأصل لا تدرين كيف كنت أمشـي؟ فلسـت بذات أهمية لك، أو أنـك صدّقتـي فعـلاً أنـي خطأ، وتركتني مشـروعاً مجانياً للتصحيح! ثُمّ هل يُحتمل أن يكون فقرنا خطأ يا أُمي أيضاً؟ وأن لا يكون لي نصيب كافـي مـن الحلـوى والحُـب مثـل سـائر الصغار فيقيني شـر الوقوع في مصائد الشوكولاته المشروطة تلك؟.. هل ساهم عوزي في قتل بلقيس المسكينة ذلك اليوم الأسود؟

آهٍ من قهري، لم يعُد يحتمل زيف هدهدة كلمات أمي الشفافة.. واعتذاراتها المتوارية تلك.. لم يعد به مكان للكلام بعد أن لوّنه ظلام خوفي بليله اللا مُنتهي.. وإن جاملت أمي حرصاً على قدرها كأم، فإني قد أتجاوز عن كُل احتمالات الخطأ المترتبة على وجودي، إلا خطأه هو، وفعلته الشنعاء بي، فهذه لا تحتمل أن تحدث بالخطأ.. كُل شيء كان مُعدّ مُسـبقاً.. كُل الوجع كان مُهيئاً، ثياب سـوداء حيكت بعناية.. لألبسـها طـول العمـر.. ثياب تحمل خاصيـة الإلتصاق بأديم الوجدان، تُعلن به مآتم سرمدية لا تنتهي.. مآتم نسيها الموت.

يومهـا أخذتنـي كلمـة أمـي لـدروب بعيـدة عن أسـرار وحكاياتها

الملونة بالأمل، فلم أعد أسـمع شـيئاً، بل لم أعد أهتم بالاسـتماع بعد أن تنبهت على أني لا أعدو كوني أنثى هُلامية أتت للدنيا بالخطأ، فمثل هـذه الأنثـى لـن تُحِـب أو تُحـب، كما ولـن تكون جميلةٌ أبداً، حتى لو قالت لها أسرار ذلك، وشهِد الكون كله بجمالها، فمثلي لا تملك أن ترى نفسـها حلوة، مهما أخبرها الآخرون بذلك. هي ليسـت سـوى رد فعل، لا يملك الحق في السيطرة على كُل الأفعال.

* * *

(8)

طرق شديد على باب الحمام أعادني للحاضر، فوجدتني قد أنهيت حمامي دون أن أتنبه لذلك.. لففت المنشفة على جسدي المتهالك، وخرجت ليُقابلني وجه هدى أختي التي حضرت أثناء وجودي في الحمام. قالت بعد أن سلّمت عليّ:

(طولتي يا أختي بنحط العشا). فاجأتني بطريقتها في الكلام. بدت متغيرة بعض الشيء، أكثر ليناً ربما! لا أدري ولكني أذكر جيداً جملتها التي تقولها في مثل هكذا مناسبات عندما يتأخر أحد ما في الحمّام، كانت تقول ناصحة:

(الدين ينهانا عن البقاء في الحمامات أوقات طويلة.. أقضي حاجتك وأخرجي سريعاً جزاك الله خير).

تأملتها قليلاً، وأنا أبحث عن ردٍ مناسب أقوله لها، غير أني تراجعت وشرعت أسألها عن أحوالها وأحوال أبنائها.كانت المسافة شاسعة جداً بيني وبينها، لا تسمح لنا بالالتقاء الحقيقي في زمن قصير كهذا الدائر بيننا الآن، لذا استأذنتها للدخول لغرفتي للبس ثيابي.

شيء من التعجب ألمّ بي إثر لقائي وهدى. هدى اليوم ليست هي هدى الأمس التي رأيتها آخر مرة قبل عدة أشهر لمّا نوّمت أُمي في المستشفى، إثر الأزمة القلبية الأخيرة التي ألمت بها. أذكر جيداً كيف كانت هدى جافة ونزقة حتى أنها تأخرت كثيراً في الحضور للاطمئنان على أمي فكيف بها تتحول هكذا وتأتي في الحال والمريض هو سلطان الذي لا يعني لها الكثير..

ساقتني الذكريات وأنا ألبس ثيابي لتأخذني لذلك اليوم عندما أدخلت أمي إلى المستشفى. كان قلب أمي عليلاً جداً، وقد أثقلته هموم عمرها سنيناً طويلة، فلم يحتمل المزيد وراح يصرخ مُهدداً بالإضراب عن العمل إن هو تلقى المزيد من الضغوطات. وكان أن أتت الضربة القاضية عليه بعد أن أعلنت هند زوجة أخي بأنها ستغادرنا وأنها تطلب الطلاق. كادت أمي أن تقضي بسبب انفصال هند وسلطان ورحيل الصغيرين مع أمهما، ولكن الله سلّم وكتب لها المزيد من العمر. حدث ذلك إثر توتر شديد شاب علاقة الزوجين، بدأ بعد وفاة بسمة بأسابيع قليلة. كان نقاشهما يصل إلى سمعي واضحاً كل ليلة، صوت هند كان الأعلى دائماً، لم أجرؤ على التدخل بينهما، فهند مُتحفظةٌ جداً في أمورها الخاصة وربما ظنّت أن شكواها ستؤخذ على أنها اعترافاً بالفشل من قبلها، فكفّت عنها، خاصة وهي التي تغنّت كثيراً بقدراتها، وذكائها المتميز، وأخيراً وهذا المهم بفوقيتها على سلطان.. بل علينا جميعاً. كانت تُردِّد مآثر أسرتها أمامنا في كل مناسبة، وأحياناً بدون مناسبات. تحكي عن والدها وإخوتها الذكور بفخرٍ شديد، وهي تُقارن بين وضعهم الاجتماعي ووضعنا. أما اقتصاديا فلم تكن تملك الكثير لتُباهي به، فعائلتها لا تزيد عن عائلتنا شيئاً يُذكر. بيت متوسط الحال يملكونه، أكبر قليلاً من بيتنا، ولكنه لا يتميز عنه كثيراً. وقد استقل إخوتها بالسكن بعد زواجهم، مُستندين على وظائفهم في تحسين الوضع المادي للأسرة. وهذا الأخير هو ما كانت هند تُعاير سلطان به دائماً، في كل نقاشٍ يدور بينهما. تذكره بأنه ليس إلا حارس أمن (سكيورتي.. لا يهش ولا ينش)، كما اعتادت أن تقول، وأنه لا يمكن أن يكون أي شيء أكثر مستقبلاً. تزوجها أخي عن طريق خاطبة أوصتها والدتي بالبحث عن زوجة مناسبة لسلطان، ولما كان سلطان

لا يملك الكثير، ولا يتميز بالكثير، كما ولا يخفى على الناس سوء سمعته وسهراته المشبوهة وسلوكياته السيئة، فقد أدى ذلك إلى صعوبة العثور على زوجة مميّزة له. كان قد اقترب من الثلاثين وقت ألحت عليه والدتي بضرورة الزواج، رصيده من الميزات كعريس لا يزيد عن شهادة الكفاءة، وراتب ضئيل من وظيفته كحارس أمن. قبلت به هند والتي لم تحظَ بشيء من الجمال لا شكلاً ولا شخصية إذ اشتهرت بعبوسها وحدّة طبعها ونزقها، إضافة إلى أنها في مثل عمره تقريباً، رُبما رغبت في أن تطرد بزواجها منه شبح العنوسة الذي بدأ يُخيم على أرجاء عمرها المُفرغة من الحب. ترددت أُمي قليلاً قبل أن توافق على اقترانه بهند، ظانّة بقلب الأم أن أبنها يستحق الأفضل، ولكنها وافقت في النهاية لما لم تجد البديل الأفضل. وهكذا تم كل شيء بسرعة. كنت أشعر منذ البداية برفض هند لنا جميعاً، وكأننا عار لا تريده أن يلتصق بها. لاحظت ذلك لما امتنعت عن إقامة حفل لعرسها مُتحاشية -في نظري- التقاءنا بعائلتها، وكان لها ما أرادت بحيث لم نجتمع بهم سوى عند قدومنا لطلبها لأخي، ومرة بعدها لتقديم المهر، ثم مرة أخيرة - بالنسبة لي - بعد زواجها بسنة، وكان يوم عيد الفطر. أشارت على أُمي يومها بأن تصطحبها إلى بيت أهلها لتهنئتهم بالعيد، كما وطلبت منّي الأمر ذاته. كنت يومها أستعد للذهاب معها وقد لبست ثياباً جديدة أحضرتها للمناسبة، فما كان من هند إلا أن دخلت غرفتي وهي ترسم ابتسامة تتصنع بها الود، وقدمت لي ثوباً قالت إنه هدية العيد. أخذته منها وشكرتها بامتنان متصورةٌ أن ما يحدث هو تحوّل كبير رُبما وقع عليها تحت تأثير مشاعر العيد، مواسم الأفراح العائلية، فلعلها رغبت في تأكيد انتمائها لنا بهديتها تلك، غير أن شعوري هذا ما لبث أن تلاشى تاركاً مكانه مهانةٌ وذل كسياني وأنا ألبس ما ابتاعته لي

بدلاً من ثوبي الخاص، إذ أتضح لي أن هند كانت ترتب هندامنا قبل أن تعرضنا في سوق نخاسة أسرتها، لتُباهي بنا قليلاً أمام أهلها وأخواتها وزوجات إخوتها. لعبت لعبتها بدهاء، بحيث أفهمتني بأن لبس الثوب الآن يعني أني قبلته وأنه أعجبني، ولم أستطع الرفض، بالرغم من علمي بنيتها، فقد أعطيتها ما أرادت، ولكنها كانت المرة الأخيرة التي رافقتها فيها لزيارة أهلها. وتركت أُمي تذهب معها وحدها فيما بعد.

لا ألوم هند فيما تفعله أبداً، ولكني أربأ بنفسي أن أكون وسيلةٌ تُهذب بها صورتها أمام الآخرين على حساب كرامتي، ولو كان لي الرغبة في التحدث بنفس لُغتها لسألتها لم وافقت على الزواج من رجلٍ تظنه أقل منها بأي شكلٍ من الأشكال؟ ألا يعني هذا أنه يكمل نقصاً لديها؟ أم أنها ملاك رحمةٍ نزل عليه من السماء لينتشله من بؤسه؟. وهاهي ترفض هذا الملاك علانيةٌ، وتريد الخلاص منه نهائياً، فعلى ما يبدو لم يعد صالحاً للمزيد من التحسينات. صار عبئاً يُثقل كاهل وضعها الاجتماعي، وربما اكتشفت شيئاً جعلها تيأس من إصلاحه، وترفض الاستمرار معه. لم نكن نتحدث كثيراً أنا وإياها، غير أنها نادتني قبل أيام من رحيلها لتُطلعني على قرارها، قالت بأني الأصلح لنقل الخبر لوالدتي، فهي لا ترغب في المزيد من الضغوط والتدخلات، لذا فهي تُبلغنا بقرارها فقط. همَسَت يومها بعد أن ثرثرت كثيراً معي على غير عادتها:

(أخوك ما عاد ينفع لشي يا آمنة.. من ماتت بسمة وهو خرقه). صمَتت قليلاً ثُم أضافت وكأنما تؤكد جُملتها السابقة: صرنا أنا وإياه في السرير مثل الإخوان!

كان يُمكنها وصف حالها ذاك دون أن تورد جملة (مثل الإخوان) في حديثها.. فكل شيء يمكن أن أستوعبه كوصف للصدود والبرود

الجنسي إلا تلك الجملة. هنالك الكثير مما يمكن قوله للتعبير عن خيبتها معه، ألم تجد سوى هذا التعبير؟ وما أدراها أن هذا الأمر لا يحدث بين الأخ وأخته؟! حقدت عليها حينها، لما شعرت بمدى بُعد تصورها عن أمرٍ كهذا. حسدتها على خلو مُخيلتها وتصوراتها من إمكانية حدوث هذا الوضع في الواقع، حتى أنها أوردته مثالاً للتدليل على استحالة الممارسة بينهما.

(يا حظّك يا هند). قلتها في نفسي يومها وأن أتصور أن هنالك إنساناً ينعم بالعيش في جنّة الجهل تلك، ورحت أتساءل في نفسي، هل يمكن أن تتصور هند أني أحسدها الآن على أي شيء، وهي التي ترددت كثيراً قبل الشروع في قرارها متجنبة سُخريتنا منها؟ كانت تظن أن خبر الانفصال سيُبهج قلوبنا المقهورة منها كما تتخيل. كثيراً ما شعرت بأنها تظن أني على الأقل أغار منها، لأني عانس، فهل يمكنها أن تتصور غبطتي لها على أي شيء الآن تحديداً؟ وددت أن أخبرها بذلك على الأقل حتى تجد ما تزهو به عليّ في لحظة انكسارها تلك، وهي التي اعتادت الزهو من قبل، ولكني عدلت عن الأمر، فأن أقول أمراً كهذا يعني أن أُفسره، ولست بالتأكيد قادرة على فعل ذلك. أخذتني شكواها تلك إلى مفارقةٍ عجيبة، فهنا امرأة تشكو من عزوف سلطان عنها! الرجل ذاته الذي قتل أُخرى بالإقدام! تنبهت وقتها على أن المُقارنة غبية جداً، فهذه أُنثى ترجو حب رجلها، وتلك طفلةٌ زُج بها إلى عالم خوفٍ مجهول، من الرجل الذي يُفترض أن يكون سنداً لها ضد أي خطرٍ يواجهها. كُنت ذاهلةٌ وهي تُثرثر فوق رأسي ذلك اليوم، عندما تنبهت هند لحالة الفزع التي اعترتني، والتي تُباغتني دائماً إثر تسلل أي حدث يمت للماضي بصلة. ظنّت أني مُتأثرة لقرارها، ومُرتاعةٌ منه، وعلى غير عادتها همت باحتضاني، لما شعرت بتوتري، ولكني

دفعتها عنيّ برفق، فلا يعوزني شعور لا يمت بصلةٍ لما بي. غادرتها متوجهة إلى الأسفل، ثم دخلت غرفتي وأغلقتها على ذعري، محاولةٌ السيطرة عليه. كانت الأدوية التي منّ بها عليّ حادث موت بسمة – وقد استخدمته عُذراً لطلب العون من الطبيب النفسي – هي ملاذي في الفترة الأخيرة إذا ما باغتتني نوبات الذعر تلك، فآخذ حبة أو حبتين لتأتي كمخدر لأشباحي تلك. تشل حركتها مؤقتاً، وتُغافلها بوهم الهدوء إزاء هجماتها الوحشية تلك، فتلوذ الأشباح بالصمت منتظرة مُتنفّساً جديداً، يُتيح لها فرصة مُباغتتي مرةٌ أُخرى. تعودت على تلك المخاوف وإن لم يخل الأمر من الألم الجسدي. آلام في عضلاتي المُتشنجة، ودوار يلف رأسي إثر تلاحق أنفاسي وتقطعها، حتى يغدو رأسي وكأنه لا يخصّني، فلا أعود قادرة على التحكم في حركته. يتراجع بحركات متواترة إلى الوراء، فأسند ظهري للحائط، وأضغط بما أوتيت من قوةٍ عليه، كي أحفظ رأسي من الانفصال عن جسدي فيما لو أستمر في الالتواء للخلف، وأسحب أي قُماش بقربي وأدسه في فمي ليُخفف من ضغط فكي على بعضهما. جسدي متهالك. يُنتهك قسراً، ثُم يبقى العمر كله يدفع الثمن باهظاً، كلما زارته أشباح الذاكرة. كنت أعرف مواقيت حضورها وبواعث خروجها، ومحطات رحيلها عنّي، فتكيّفت معها شيئاً فشيئاً، مستنجدة بكل ما يمكنه مساعدتي في السيطرة عليها. في البداية وقت كنت طفلة كانت أُمي هي الملاذ، أتشبّث بها بشكل جنوني حتى أني ألتصق بباب الحمام لحين خروجها منه إذا ما دخلته. يبدو لي إنها كانت متعجبة لحالي المفاجئ ذاك الذي داهمني إثر أول مرةٌ انتهكني فيها. انتظرتها تلك الليلة حتى عادت من العرس، ثُم ركضت إليها وأنا ارتجف، ضفائري لا تزال مبلولة، وقد اختلط ماؤها مع حبات عرقي التي كست جسدي كلّه. ظنتني أُعاني من الحُمى، فنهرتني لأني اغتسلت

وعرضت نفسي للهواء، لم أُخبرها أنه هو من غسلني، خفت أن يظنني أشكوه لها، فيذبحني كما هدد، تجاهلت غضبها منّي، واكتفيت بنعمة وجودها بجانبي فقط، ورحت وأنا مُمدّدة في فراشها وعلبة حلوى ماكنتوش في حُضني أدس رأسي الصغير في صدرها. مسحت جبيني بيدها تتحسس حرارتي المرتفعة، وقامت لتُحضر لي زيتاً دافئاً، دهنت به جذعي من الأمام والخلف، ثُم سكبت الباقي على عُنقي وغطتني ببطانيتها. ذهبت بعدها لتغسل يديها، فلحقت بها وأنا أجر البطانية بيد وأُحكم بالأخرى على علبة الحلوى حتى لا تضيع. نهرتني مرة ثانية، وطالبتني بالبقاء في الفراش لحين عودتها، فعُدت بعد أن أضأت مصباح الغُرفة، وبقيت جالسة على الفراش في انتظار عودتها، وعيناي مفتوحتين على آخرهما تترقبان أي هجوم آخر محتمل الحدوث، فما أدراني بأنه لن يحدث مرةٌ ثانية وقتها؟ فكرت تلك الليلة أن أُخبرها بالأمر، ولكني خفت وعيده، كما وتذكرت ما دار بينها وبين هُدى أُختي قبل سنوات. كُنت صغيرةٌ، وهُدى قد جاوزت الثالثة عشر على ما أذكر، جاءت تركض لتشكو بائع الحلويات في المتجر المجاور لمنزلنا، أخبرت أُمي بكلمات متقاطعة بأنه لامس مؤخرتها وهو يناولها المشتريات، وأنها دفعت يده بقوة، كذلك صرخت فيه (يا كلب). كانت مُعتدّةٌ بذاتها وهي تقص الحادثة على مسامع والدتي، والتي ما كان منها إلا أن ثارت عليها بشدة، وقرصتها في فخذها وهي تُخبرها بأنها من أخطأت بدخولها محله، وأنها رُبما كانت تدفعه لفعل فعلته القبيحة تلك، بحركاتها المُريبة. وختمت كلامها معها بقولها، وهي وتسن فكيها على بعضهما تضغط على الحروف بالكاد تُخرجها من فمها غضباً:

(انتزع الحيا.. تجسرين تقولين ذا الكلام يالمارجه؟!).

لما تذكّرت الحادثة، ضغطت بيدي الصغيرة على فخذي أنا

ورحت أدلّك نفس المكان الذي قرصتها أمي فيه، شعرت بالألم يكويني، حتى أني تصوّرت - بخيال الطفلة - أن هنالك رابطاً خفياً بين ما وقع عليّ وما وقع على أختي هُدى، وأني بالتالي مسئولة عنه كما قالت أمي لها من قبل، ورُبما زاد الأمر عن ذلك، فالفاعل هذه المرة هو أخي، وليس البائع الغريب، فكيف سيكون رد فعلها عندها؟ ألن تحميه وتُجنبه الملامة أضعاف ما كالت للبائع الغريب؟ هذا وارد جداً، ثُم أن سلطان هددني بالذبح، فلن أُعرض نفسي لسكينه أبداً. بقي لي أن ألوذ بالصمت فقط، وأطبق على خوفي جدرانه، ليبقى ساكناً داخلي ما شاء من الوقت، مجهولاً يعوث في نفسي فساداً، فذلك عين العقل، كما ويجب أن لا أتجاهل الغنيمة التي حصلت عليها جراء ذلك الانتهاك، علبة حلوى كاملة لي لوحدي، تلوّن يبابي بسحر بريقها الأخاذ!.

تنتقي ذاكرتي ما شاءت وتلقي بالباقي في سلّة المهملات. هكذا تفعل دائماً عندما أُحاول تذكر أمرٍ ما أو فترة معيّنة من حياتي، فلا أحصل إلا على ما شاءت ذاكرتي أن تصرفه لي من مخزنها، وأقبل به على أنه الشيء الوحيد الواقع عليّ. قالت أنجيلا مرة - في أمر الذاكرة ذاك- بأن البعض منا يقوم بلا وعيٍ منه بقص الأجزاء المعطوبة من سجادة ذاكرته الموجَعَة، ويلقي بها في مكان مجهول من اللاوعي، بينما يبقي على الجيد فقط، لذا مهما حاولت التذكر لم أستطع تفسير أمر توقف سلطان الفجائي عن غاراته الوحشية تلك. كل ما أذكره أنه انقطع تماماً بلا أي تفسير. كما ولا أذكر على وجه التحديد كم مرةٍ أطلق وحشه على مملكتي الصغيرة، لعلها كانت خمس مرات..عشر مرات أو خمسة عشر.. لا أدري على وجه الدقة. بعدها صار معزولاً عنّي تماماً. كذلك لاحظت زيادة حرص والدتي عليّ، مُراقبة أكثر منها

توغلاً في جُرحي، بينما لم أبُح بأي شيء لأيٍ كان. فقط أُمي وهدى تتناوبان على حراستي، ما أراحني بعض الشيء، وساعدني على صفّ ذلك الوجع في مستودعات الذاكرة، راجية بادراك طفلة وجِلَة، أن تمحوه الأيام بمرورها.. ولكنها لم تفعل. توقف الفعل والفاعل، بينما بقي المفعول به يجتر ويلات الفعل كلما لاحت له نوافذ وجعٍ مُشرعة، مثلما حدث إثر حديثي وهند، في ذلك اليوم حيث غادرتنا بعد أن لملمت ذكرياتها، وصغيريها، ورحلت في صمت دون أن تُعلمنا، أو حتى تودعنا، وكأنما تؤكد رحيلها النهائي بكتمانها ذاك.

* * *

(9)

أعـدّت والدتـي طعامـاً شـهياً بمناسـبة قدوم هدى مـن الطائف.. شاركتهم العشاء في شبه حالة صمت، لا يقطعها سوى بعض الإجابات التـي أضطـر للتلفـظ بهـا إذا مـا وجّـه لي سـؤال من أمي أو هدى حول وضع سلطان الصحي، وهل يشرف عليه طبيب جيد، وغيرها من أمور. كنت قد قررت النوم على معدة خاوية تجنباً لأحاديث لا رغبة لي في خوضها، لكني عدلت عن القرار وشاركتهم العشاء بعد أن رجتني أمي أن أفعل. تحدثت أمي وهدى في أمر عدم قدوم زوجها راشد بصحبتها وبقائه مع أبنائه في الطائف. كانت أمي متعجبة من موقفه وهي تتكلم، فليس من عادته أن يكون بمثل هذه اللباقة والتعامل بمثل هذا التقدير مع أختي.. كذلك انطباعاتي عنه أنه شديد الأنانية لا يهمه سوى رغباته واحتياجاته فقط، فما سرّ هذا التغيير؟ لم أشأ أن أسأل هدى، ولكني حوّرت السؤال في صيغة أخرى، وقد أكلني الفضول فقلت:

(عسى ما شر؟ عيالك ورجلك طيبين!).

كأني لمحت تغيّر لون هدى وتوقفها عن بلع لقمة كانت تلوكها فـي فمهـا منـذ أن بـدأ الحديث عـن زوجها وحتى الآن.. كحت مرتين قبل أن تلتقط كأس الماء وتسـكب نصفه في جوفها، دافعة به لقمتها تلك وبعض ارتباك اعتراها حينها. قالت بعدها وهي تجاهد لتبدو هادئة:

(مـا فيهـم إلا العافيـة..) صمتـت قليلاً ولما شـعرت بأن الموقف يستدعي المزيد من التوضيح، استدركت قائلة:

(تفاجئنـا بمـرض سـلطان ومـا بغيـت أتأخـر في الجيّـة للرياض،

وبعدين معي معاذ وإلا ما تعدونه رجّال). قالتها وهي تُشير إلى صغيرها الجالس بجانبها يتناول طعامه وهو نصف نائم.

أعطتها جملتها الأخيرة شيء من الهدوء أعاد إليها بعض شهيتها التي فرت منها قبل قليل فعاودت الأكل وكأنما تخبرنا بذلك أنها على ما يرام. تعجبت لحالها الغريب ذاك غير أني آثرت الصمت خاصة وقد لاحظت تنهدات أمي التي كانت تطلقها بين آن وآخر وهي تدعو الله أن يرفع هذه الغمّة التي ظللت منزلنا منذ ماتت بسمة، وما تلا موتها من طلاق أبويها، ثم حادثة سلطان الأخيرة. تعاطفت مع أمي رغم شعوري بالألم جراء تجاهلها لحالي وما أصابني منذ زمن تاركاً بصماته على مصيري حتى الآن، وفكرت كيف لا يشغلها أمر وحدتي وبقائي بدون زوج حتى هذا العمر المتقدم؟ لكني أزحت هذا الهاجس الأناني وقد قررت بأن أتابع مسيرة عنايتي بهذه المرأة العجوز التي لا تملك في الدنيا سواي تقريباً، فماذا لو فتحت الباب لغول غضبي منها وتركته يهجم على بقايا رجائها فيّ؟ حتما ستكون القاضية بالنسبة لها. استأذنتهما للدخول لغرفتي وعزائي أن هدى باقية الليلة مع أمي فمن حقي أن أحظى ببعض الراحة قبل الغد المجهول.

تركت باب غرفتي مواربـاً لما لم يكن في البيت سوانا، بينما تمددت أمي وهدى وصغيرها على فرش أعدتها أمي لهم في الصالة الواقعة في وسط البيت..

اضطجعت غير آملة في النوم السريع لعلمي بأن وقت نومي لم يحن بعد ولكن لأريح جسدي المنهك من جراء آلام الحيض. تناهى إلى سمعي بعض أطراف حديث كان يدور بين أمي وهدى، قالت أمي رداً على كلام هدى الذي فاتني لانخفاض صوت الأخيرة وقت تلفظها به:

(يا بنتي أمر الله.. وش في يدي؟ شيري عليّ كان به دبره)

(يمه راشـد بدا يشـك.. أول كان يزربني بها والحين ينطل عليّ كلام شين..) قالت هدى رداً على أمي.. وأردفت:

(يقول أختك فيها علّة وإلا كان أعرست مبطي).

نهرتها أمي وهي تُشير إليها بخفض صوتها.. ثُم دار حديث بينهما لم أستطع سماعه.

تحركـت بنيّـة إغـلاق البـاب، وأنـا كُلّـي غضـب.. ولكني عدلت وتركته مواربـاً آملة أن تتطرق إحداهما لتفاصيل أكثر يمكنني من خلالها الإلمام بمدى علمهما بالموضوع، لكن رجائي خاب، إذ صمتتا أو رُبما خفضتا صوتيهما أكثر، كما وفُتح مذياع أمي بواسطة إحداهما فلم يعد بإمكاني سماع أي شيء آخر، عندئذ وجدتني أنصرف بهواجسي بعيداً عـن حوارهمـا، وأبحـث فـي تفاصيـل هدى عن أي موقف سـيء يتيح لمشاعري الغاضبة أن تخرج من داخلي دون أن أشعر بالذنب تجاهها.

تذكرت موقفها قبل فترة قريبة لما مرضت والدتي قبل عدة أشهر، وما كان منها من تجاهل وتباطؤ في الحضور للرياض للاطمئنان عليها، اتصلـت بهـا آنـذاك وأبلغتهـا بمـا جرى من هند، وما حدث إثره لأمي، وطلبت منها أن تحضر لتُسـاند أمنا التي على ما يبدو أنها تعاني هذه المـرة مـن أزمـة قلبيـة شـديدة.كُنا فـي فترة دراسـة فتعـذرت بارتباطها بمـدارس أولادهـا، وعـدم قدرتهـا علـى الحضور في الحال، قالت أنها ستبحث الأمر مع زوجها راشد وسترى إن كان بالإمكان أن يسمح لها لتأتي وحدها للرياض. استغربت من غلظة قلبها، إلى درجة التغاضي عن حاجة أُمها لها آنذاك؟ تساءلت هل كانت هكذا منذ البداية أم أن زوجها غيرها؟ في بداية زواجها كانت تداوم على زياراتنا في الأعياد والأجازات، وأحياناً بدون مناسـبة، ولكنها تغيرت شـيئاً فشـيئاً، حتى

صارت تعتذر عن القدوم بحجج واهية وسخيفة في أحيان كثيرة. كان زوجها يُحكم عليها الخناق عندما تكون بصحبتنا، بحجة أن بيتنا به منكرات لا يود لها أن تتورط في ذنب قبولها، فصارت أُمي تتحايل لإبقاء هُدى عندها مزيداً من الوقت بمسايرة زوجها في رغباته تلك. لم يكن إذعان هدى لزوجها ليُزعجني أبداً لو لم تفعل ما فعلت أثناء تواجدها عندنا أيام وفاة بسمة. حضرت في اليوم الثاني للوفاة. قالت بأنها لم تجد رحلةٌ أقرب من هذه. لم يلمها أحد، فقد كُنا منشغلين عن غيابها أولاً، ثُم غير متوقعين منها المزيد. لكن أن تفعل ما فعلته في بيتنا الصغير الذي لا تسمح مساحته الضيقة بإخفاء أي سر، ولا يأذن حزنه الهادئ بإشاعة أي نوع من المُتع الصاخبة وقتها، فهذا ما لن أنساه لها، بل ويقرفني منها أيما قرف. وأقول قرف لأنني لا أجد مسمى آخر يمكن أن أنعت به فعلتها تلك.

وصلت وزوجها وأصغر أبنائها بعد العصر، وبقيت مع المعزين حتى ما بعد صلاة العشاء. كان البيت مكتظاً بالوفود التي قدمت لتؤدي واجب العزاء، والتي بدأت في الانصراف قرابة التاسعة. لم يبقَ إلا نحن. أنا وأمي، وسلطان وزوجته الشبه غائبة عن الوعي معظم الوقت في ذلك اليوم، وصغيريه الحائرين فيما يجري، سعد أكبرهما كان متأثراً لما تأكد من أن بسمة لن تعود ثانية لتلعب معه، فكان يبكي أحياناً، وينصرف للهو ما أن يقدم لنا أحد من المعزين بصحبة طفل، وأخيراً نام بعد أن أنهكته أفكاره الحيرى، وتساؤلاته التي لم تُشبع بإجابات شافية. أخذته لغرفتي ليكمل نومه مع أخوه الصغير، وعدت لأُجالس أمي وهند وهُدى التي بدأت بالتململ ما أن فرغ المجلس إلا منّا. دخل سلطان ليُبلغها بأن راشد مُرهق، ويسألها أن تهيئ له الفراش. لم يكن البيت كبيراً بما يكفي لتخصيص غرفة لهما، فأعدت له الفراش

فـي مجلـس الضيـوف، أثنـاء ذلـك صعد سـلطان لغرفته، وبقيت أنا مع أمـي وهنـد. لـم تعُـد هُـدى وقتهـا، أخـذت صغيرهـا ودخلت مجلس الضيوف حيث فراشـهما، فقلت في نفسـي رُبما أرهقها السـفر وغفت دون أن تـدري. بقيـت حيـث أنـا فلـم أكـن قـادرةٌ على التوحد بنفسـي في غُرفتي خشـية أن تخنقني أحزاني. ليلتها لم أنم جيداً. كنت أُغلق عيني فتُباغتني صور الحادثة ماثلةٌ أمامي طازجة ترفض برودة الموت. تنبهـت مـن غفوتـي وقـت صـلاة الفجر على صوت باب الحمام يُغلق. قمت لأغتسل وأطمئن على أمي وهند فوجدتهما مستيقظتان. خرجت هُدى من الحمام مُلتفّة بالمنشفة وهي تنظر إلينا خجلةٌ، ثُم توارت في غُرفتي. اغتسـلت وعدت لأدخل غرفتي فإذا بها تُبادر بشـرح حالٍ لم أسأل عنها ورُبما لم أتنبه لها أصلاً لو لم تُلفت نظري. مُتلعثمةٌ باحت:

(والله ما ودي.. أصلاً من له نفس) صمتت قليلاً ثُم تابعت مبررة: (أخاف تلعني الملايكه).

كنت مُنحنية على فراش الصغيرين أطمأن عليهما وأُحكم غطائهما عندما تنبهت لما تعنيه. التفت إليها، ولم أجد ما أقوله رداً عليها. بقيت تنظر إليّ منتظرةٌ كلمةٌ تُريحها أو تُبرر أنانيتها، لكني لم أقو على قول أي شـيء. فقـط تصـورت الصغيـرة فـي قبرها رطبةٌ لـم تتغير ملامحها بعد.. دُفنت قبل يوم فقط، رُبما لم تسـتوعب بسـمة نفسـها أنها ماتت بعد، بينما عمتها تُضاجع زوجها بقلب بارد خشيّة أن تلعنها الملائكة لو رفضت طلبه! هل يُمكن أن يُسلّط الله ملائكته لتطرد امرأة من رحمته لأنها لم تستجب لزوجها بسبب حزنها على موت ابنة أخيها الطفلة؟. مـن الـذي يجـرؤ علـى التفكيـر هكـذا؟! كيف لهـا أن تتصور الله بهذه القسوة، ثُم تعود تُصلّي وترجو رحمةٌ لم تعتقد بوجودها وقت حُزنها على الصغيرة؟! يا لتناقضات هُدى تلك! كان أشـرف لها أن تصمت

ولا تُبرر فعلتها بأي شيء. لعلّنا نجد لها عُذراً أكثر إقناعاً فيما لو كشفنا الأمر. يومها فكرت فيه أيضاً - راشد زوجها - هل كان بالفعل يشتهيها وسط هذه الظروف؟ ليسا عروسان جديدان، ولتوهما قدما من بيتهما.. كان بإمكانه مُضاجعتها البارحة.. لماذا يُصرّ - فيما لو كانت صادقة - على إتيانها هُنا.. وسط رائحة الموت؟ هل يستلذ بافتراش مشاعرها الحزينة ليشبع غروره المريض، ويسخّرها تمثالاً خضوعاً يُضرم الرغبة في روحه الهامدة؟ أم أنه يتأكد من مدى سلطانه عليها مختبراً إياه في أعصى الأوقات، فإن نجح علا هو وإن أخفق سقط وجرّها معه في حفرة اللعن تلك!. لو كنت مكانها وكانت صادقة فيما تدعيه فإني سأشعل النار فيه، وأتركه يذهب إلى الجحيم، أو يتذوقه على الأقل لو كان يرجو النجاة منه في الآخرة.

تنبهت على نفسي ووجهي محتقن جراء ذكرياتي تلك، فسخرت من نفسي. مالي أنا وهُدى وزوجها.. هل أنا ناقمةٌ عليها لأن لها رجل تُضاجعه وتحبه رُبما؟ هل أغار منها فأُفسد صورتها في ذهني بأي حُجّة؟ أم أن فعل الجنس بحد ذاته هو ما يقرفني؟! لا أدري. لم أعُد قادرة على تفسير ما يعتلج في روحي المُضنية من ظنون وأفكار مُضطربة. صرت كمن تحوّل بصره إلى الداخل، فلم تعُد لديه القدرة على رؤية أي شيء خارجاً، كُل ما أراه مجرد صور ضبابية مُتداخلة منعكسة من تصوراتي الخاصة للأمور، بانوراما غير مترابطة، لا أستطيع تحديد بدايتها من نهايتها، ولا متابعتها بدقة، حدودها لا مرئية، يصعب تبيّنها، ولا قدرة لي على فك اشتباكاتها وتمازجاتها المبهمة.. كيف لي أن أفهم ذاتاً مضطربة كذاتي؟. مُتشظيّة أنا وملأى بالتناقضات والخيبات، والسقم.

عندما أُفكر في العلاقة الحميمية بين الأزواج لا أستطيع فصلها

عن ما وقع علّي في صغري. هكذا تعرفت على الجنس، ولم يحدث أن صُحّح هذا المفهوم من أحد، هذا إذا كان مفهوماً خاطئاً بالأصل! كل الجنس إكراه، وكل الرجال سلطان، بقبحه ووحشيته ورائحته النتنة، فكيف لي أن أتصور هُدى أو غيرها يستمتعن بفعلٍ كهذا؟ تذكرت هند أيضاً في بداية زواجها من سلطان كانت سمجةٌ جداً وهي تتزين له كُل ليلة. كانا مازالا يسكنان معنا في الدور السفلي، وكان لِزاماً علينا مُشاهدة استعراضهما الهزلي ذاك يومياً، بل مرات عديدة في اليوم ذاته. هي بشحومها المُكتظّة، مُلتفّةٌ بقميص نوم نايلون ضيق، غالباً ما يكون أحمر اللون أو من مُشتقات الأحمر، ولا شيء آخر يُخفي قطع الشحم المتناثرة خارج هذا الثوب. تتركها هند مُتهدلةٌ تُطل علينا من شقوق الثوب، تبحث عن فضاء أرحب منه يُتيح لها التنفس قليلاً.. أراها أحياناً عندما تخرج من الغرفة قاصدةٌ الحمام أو المطبخ، تتهادى في مشيتها خشية سقوط قطعة من شحومها إثر المشي السريع. ينتابني شعور بأنها كانت تتمادى في حركاتها تلك لتُخبرنا بأنها مرغوبة، ترتجّ ماشيةٌ، وتُبالغ في التعرّي إمعاناً في الإشارة إلى ما يحدث بينها وبين سلطان في غُرفة نومهما. تمنيت في سرّي لو كانت أنحف قليلاً، ليس اهتماما بمظهرها، فليست ذات أهمية عندي لا هي ولا سلطان، ولكن لأن منظر لحمها العاري يستفزني، ويُثير اشمئزازي، فلو كانت أنحف قليلاً فستختصر بعض هذا المشهد المبتذل الضخم الذي تُكحل به أعيننا كل ليلة. كذلك لم تكن تكتفي بإطلالة عُريها ذاك، بل تُمعن في التغنج والتحرش بسلطان بحركات مقززة وهما يتناولان الطعام معنا، حتى أني صرت اكره الجلوس معهما على المائدة. أحياناً أنام على معدة فارغة عازفة عن تناول المزيد من قُبحهما ذاك، مُفضلة الامتناع عن الطعام منذ البداية على إخراجه قيئاً فيما بعد، فالنهاية

واحـدة، معـدة فارغـة، لعلهـا تكون أفضل من تجرع منظرهما الذي لن أستطيع تقيأه لاحقاً.

الغريب أني ازددت كرهاً لسلطان بعد زواجه، إذ كان يعيش حياته على أفضل وجه. يتزوج، يُضاجع امرأته، وينجب الأطفال. بينما بقيت أنا أتجرع الوجع والخوف كل ليلة. أتساءل - أحياناً- سرّاً هل ما زال يذكـر فعلتـه بـي؟ وأجـد أن الإجابـة عقلانيـاً يجب أن تكون الإيجاب. بالتأكيد يذكر، ما الذي يدعوه للنسيان! رُبما يتعمد التذكر ليجتر لذّته المريضة كلما احتاجها لتُهيّج مُخيلته المتوحشة، فكيف أتصوره ناسياً؟ وأجدني بعد ذلك أرتعد من فكرة أنه يذكر ذلك، بل أني أخجل منها أحياناً وكأني أنا المسئولة عنها! الأمر الجيد أني وسلطان لا ننظر لبعضنا البعض مباشـرة منذ ذلك اليوم، أشـعر بأني لو نظرت إليه مباشـرة في العيـن فأنـي سـأبني اتصـالاً عميقـاً به رُبمـا لا أعود منه حيّة لذا أحاول التملـص مـن تلـك النظـرات الباعثـة علـى الرعـب والارتبـاك، أما هو فربمـا يـواري خزيـه. لـم يحـدث أن التقت نظراتنا إلا يوم وفاة بسـمة، ذلك اليوم كان المُصاب أكبر، بحيث حجب صورة سـلطان الوحش، ووضـع بـدلاً منهـا سـلطان المنكـوب، فلـم أجد أذىً شـديداً في النظر إليه كعادتي. لم يكن يُمثّل الخوف يومها، لعله أثار شـفقتي وتعاطفي بعـض الوقـت، أمـا هـو فـلا أدري علـى وجه التحديد لم كان ينظر إليّ ملياً ذلك اليوم؟ كان يُرسل لي رسائل لم أستطع فهمها حينها، وكأنه يبثني سرّاً ما. فكرت أنه رُبما قال ها أنا ذا أمامك ألقى عقاباً من الله على فعلتي بك، فكما أزهقتك طفلةٌ، ها هي صغيرتي ترحل فجأة في عمر الزهور، فاجعة أيامي بمغادرتها السريعة.. لعلك تغفرين لي الآن! لكـن صورتـه تلـك مـا لبثت أن تلاشـت بمرور الأيـام، بعدها عاودتني نوبـات الذعـر مـرة أُخـرى وكأنما أمهلتني بعـض الوقت موكلة لحزني

على موت بسمة مهمة تنغيص حياتي، وما أن هدأ ذلك الحزن والفقد قليلاً حتى استعادت مخاوفي مهمتها ثانية وعادت تُتم ما خلقت من أجله، فتذكرني بصورة سلطان البغيضة، الباعثة لكل أوجاعي، فيسقط تعاطفي معه نهائياً، وأعود أتقزز منه وأحقد عليه كلما لمحته يعيش حياته بشكل عادي.

فكرت مرات كثيرة في قتله. بل أني تصورت الموقف كاملاً، خطوة بخطوة. خطرت الفكرة في ذهني سنة زواجه الأولى. كانت تلك الفترة أكثر فترات تصاعد غضبي منه، واندلاع نيرانه لتُحرق كُل هدوء يُمكن أن يُسيطر على أعصابي الثائرة، وحقدي الدفين. لم يحدث أن اشتعلت غضباً مثل ذلك الوقت، رُبما لتزامن زواجه مع وقت تقدم لي فيه عريسان وتم رفضهما بهدوء! لا أدري، وبالأصل لم أهتم لهما، ليس الزواج أمراً ذا أهمية لي، وأعلم جيداً أني لا أملك عُدّة الستر الاجتماعية اللازمة للزواج، وهو بالتأكيد يعلم ذلك أيضاً، إنما ما أغضبني هو ذلك التآمر الصامت على وأد عمري في عزّ صباه. موقف سلطان مفهوم، ولكن أُمي كيف يمكن أن تتجاهل مستقبلي بهذه البرودة والسلبية؟ ألا تُفكر فيّ؟ ألا يعنيها أمر سعادتي المُفترضة واستقراري العائلي؟ ألا تتساءل لِم تم استبعاد خُطابي بهدوء، بينما زُج بهُدى لأول عريس طرق الباب طالباُ القُرب؟ كيف لا تُحرّك ساكناً وهي تُشاهد مهازل سلطان التي تتكرر أمامها كلما تقدم أحدٌ لخطبتي؟ أخذتني تساؤلاتي تلك لنتيجة واحدة لا يمكن أن يُبرر الموقف من دون الأخذ بها، أن أمي تعلم جيداً تفاصيل ما وقع عليّ من سلطان في الصغر، وتتستر عليه...! راعني الاستنتاج، بل أنه ضاعف لي كيلة الخوف الجاثمة على أركان نفسي، فرحت أخصف الجهل ستراً على معالم حقيقةٌ يمكن أن تقتلني لو تجلّت لي واضحة وتأكدت من صحتها، وصرت أنفض الفكرة من

رأسي بكل ما أُوتيت من رفضٍ وتبريرات. لا يمكن أن تعلم أمي ولا تفعل شيئاً وقتها! لا يمكن أبداً، ففي النهاية أنا ابنتها أيضاً، لكني ما أن أصل لهذه النتيجة حتى أذكر ما حدث لي في الطفولة لمّا توقف سلطان عن إتياني فجأة، وما كان من أمر مراقبة أمي وهُدى لي باستمرار وقتها، وهـذا معنـاه أنهمـا – أي هُـدى وأمـي – تعلمـان تفاصيل ما وقع عليّ! عند هذا الحدّ يأبى عقلي المُرهق التمادي في الاستنتاجات.. يتشنج، يتكهرب، يرتعد ثُم ينسحب مُعطياً إياي ظهره، رافضاً المزيد من الوجع، فما يكون من أشـباحي الحبيسـة تلك إلا أن تبدأ رقصتها الماجنة في مخيلتي.. تنطلق مُتسربةٌ من الفجوات التي أحدثها حديث النفس ذاك، متوشحةٌ بثياب الخوف التي لبستها استنتاجاتي البديهية تلك.. فأستسلم لنوبات ذعر تُطيح بأركان روحي الواهنة، ولا يبقى أمامي كمخرج من تلك الحالة إلا بانوراما قتل سلطان، وإزهاق روحه كما فعل بي، أراها تُعرض في شاشـات رأسـي الجاهزة لالتقاط أي صور تفريغ وجداني يمكن أن تُريحني.. أُشـاهده أمامي غارقاً في الضباب والعتمة، بالكاد ألمح خياله.. برد يعتريني وقتها.. بل صقيع، جسدي ينتفض، وأنا أتقدم نحوه بخطوات متثاقلة، يشلّ حركتها هلع الذكرى. أقترب منه، وسكين حادّة في يدي، نصلها يلمع دون سقوط انعكاسات ضوئية عليه، يُشعّ في عينيّ فقط، فيعكس جزءاً من وجه سلطان. الضباب يأبى أن ينقشع، والعتمـة تـزداد، ولكنـي أتقـدم بخطى حذرة، أخشـى أن يلمحني فيُبادر بالهجوم عليّ. أكاد أصل، لا يفصلني عنه إلا مسافة رهبة، ولكنه يبدو كمـا لـو أنـه غيـر مُبـالٍ بوجودي. أتسـاءل في خيالي: هل أنا أصغر من أن يلحظني؟ هل ما زلت بالنسبة له آمنة ذات الثمان سنوات؟ أم أني نفسي ما زلت أمام الموقف ذاته طفلةٌ صغيرةٌ عاجزةٌ عن النمو، مُحنطةٌ في قوارير التجربة المُرّة، تجرع منها جزع المواجهة، وويلات السكوت

العاجـز، (آمنـة) الطفلـة المذعـورة التي لم تسـتطع حتى أن تدفعه عنها وقتها، ولا أن تفضحه بعدما فعل بها ما فعل.. كيف لها الآن أن تُفكر في قتله مرّةٌ واحدة!. تتوقف بانوراما حُلمي عن استعراضها. تنقطع فجأة. توصد أبواب العرض في وجه عيني مُخيلتي الجزعة، وأبقى حيث أنا، أحمل وهم المواجهة التي لم تتم، وحُرقة الانتقام العاجز.. خلفي شبح سـلطان يُقهقه سـاخراً من عجزي، ألتفت وقد هيجت سُـخريته غضبي من جديد، فلا أجده.. ابتلعته العتمة، فاختفى عن ناظري!

* * *

(10)

أعلنت الساعة منتصف الليل عندما أفقت على صوت مذياع أمي وهو يبث موجزاً لأهم الأنباء، خمنت أن أمي وهدى قد غفيتا ونسيتاه مفتوحاً، فكرت في إغلاقه ثُم الخلود إلى النوم ولكني تراجعت، وفضلّت الأصوات المنبعثة منه على الهدوء الموحش المنبعث من أرجاء المنزل بعد نوم الجميع.. وصلني صوت هاتفي النقال يرن معلنا تلقي رسالة.. تعجبت من يكون المُرسل في هذا الوقت المتأخر؟ فإذا به صالح يراسلني بعد انقطاع دام عدة أسابيع..

(سمعت إن أخوك سلطان منوّم في المستشفى.. سلامات). تضمنت الرسالة تلك الكلمات.

تسبب مرض أمي الأخير في انشغالي عن صالح وقلّة تواصلي معه. أحياناً كان يمر يومٌ أو يومان دون أن نتحدث، ما دفعه وقتها لمفاجأتي بالزيارة في مكان عملي دون سابق موعد. جُنّ جنوني لما رأيته يومها، لما قد يترتب على أمرٍ كهذا من تعليقات وكلام قد يصدر من زملائي وزميلاتي يُسئ إلى سُمعتي. كان الوقت عصراً، وأنا أُنهي بعض الأوراق بيدي قبل مغادرتي المستشفى. فاجئني بحضوره الذي برره بأنه قلقٌ عليّ. أشرت له بأن يتبعني وخرجت أُحدّثه في أحد ممرات المستشفى. عاجلني بطلب لم أكن أتوقعه وقتها على أقل تقدير.

(سأُكلم أخوك سلطان الليلة لأطلبك منه). قال، وهو يفرك كفيه بعضهما ببعض توتراً، وصمت بانتظار ردّي. كُنت في غاية الارتباك،

كما والقلق من عرضه، فقد حاولت مراراً سدّ باب التحدث في أمر الزواج.

(لا أظنه وقتاً مُناسباً لطلب مثل هذا يا صالح). أجبته وطلبت منه الانصراف على أن أهاتفه لبحث الأمر ما أن أنتهي من الدوام. بدا غاضباً بعض الشيء، وهو الذي لا يفهم سرّ تأجيلي ومراوغاتي تلك. أدركت على الفور بأنه هذه المرّة قد يتخذ منّي موقفاً صارماً لو تماديت في صدّه، ففكرت بأن أرمي له بطعم أكسب من خلاله بعض الوقت.

(ما رأيك لو نلتقي الليلة ونتحدّث؟ سيكون أفضل من الهاتف). قلت له.

توقعت أن يفرد جناحي طائر فرحه ويُحلّق عالياً، خاصة وأن مُعظم لقاءاتنا كانت تتم بإلحاح منه. لم يحدث أن بادرت بالترتيب لها أو طلبها، ولكنه بدا مُنطفئاً ذلك اليوم، ولم يأتِ عرضي بنفس النتيجة التي توقعتها، غير أنه أنقذني مؤقتاً من فورة غضبه، فما كان منه إلا أن وافق، وهكذا اتفقنا على اللقاء في المساء ذاته.

يعمل صالح موظفاً في إحدى الشركات، في النهار، وسائق سيارة أُجرة في المساء. يحاول من خلال عمله المسائي تحسين دخله، حيث هو وأحد أخوته المسئولين عن أسرتهما، والد مُسنّ، عاجز عن العمل وتسعة أنفس تنتظر الطعام والكساء. الطريف في أمر عدد إخوة صالح أني لا أذكر كم الذكور وكم الإناث! كانوا أربعة ذكور وخمس إناث أو العكس، وكنت دائماً ما أسأله عنهم ويُجيبني ثُم أعود أنسى. فسرت الأمر بأني غير مهتمة بتفاصيله كُلها لذا أنسى المعلومة في كُل مرة يخبرني بها. لا تثبت التفاصيل الخاصة به في ذهني لأني على الأحرى لا أسعى لتثبيتها. رُبما كُنت أُضمر في داخلي أمر نسيانها وربما نسيانه مُستقبلاً لذا تختفي من تلقاء ذاتها. لم يكن صالح أكبر إخوته عمراً

ولكنه أكثرهم حسّاً بالمسئولية على ما يبدو، ورُبما أكثرهم طموحاً. لم يتسنَ له إكمال دراسته الجامعية، واكتفى بالعمل فقط. تعرفت عليه من خلال عمله المسائي كسائق أجرة، أوصلني ذات يوم من المستشفى إلى البيت، لما تخلّف رفيق عن إيصالي، لم يُصرّ على مُلاحقتي كعادة بعض الشباب، ولكن حدث أن نسيت رداء عملي الأبيض في سيارته ذلك اليوم، فما كان منه إلا أن أحضره لي في اليوم التالي، في نفس الوقت والمكان. ارتحت له قليلاً، ما دعاني لطلب رقمه حتى يوصلني في الأيام التي يتخلّف فيها رفيق عن إيصالي. وهكذا نشأت بيننا علاقة هادئة توطدت مع الأيام. وشيئاً فشيئاً صارت أعمق، وأخذت من طرفه شكل الحُب، بينما لم تزد عندي عن كونها حضناً دافئاً أتزود منه مئونة تقيني صقيع الوحدة.

(مضى من الوقت قرابة السنتين يا آمنة.. ألم يئن الأوان لتُقرري؟). سألني عاتباً لما التقينا في الموعد.

كالآخرين ورُبما أكثر منهم، امتنعت منذ البداية عن إخباره بتفاصيل ماضيي الأسود. لا يدري لمَ لا أُفكّر في الزواج ككل البنات، والحقيقة لم يكن أمر فقدان بكارتي هو ما يمنعني عن الزواج فقط، أعلم بوجود حلول سرّية يمكنها أن تُرقّع تمزق الجسد، ولكني لم أكن أضمن وجود حلٍ يمكنه ترقيع الوجدان المتهرئ، لذا لم أُقدم على أي من تلك الحلول، ولذت بجدران التجنّب أحتمي بها من مواجهة ذاتي المُرتبكة. لمست عزوفي عنه لما كان يتقرّب منّي بجسده في لقاءاتنا القليلة، وأظنه لمس ذلك العزوف أيضاً، ولكنه ربما بحسن نيّة أرجعه إلى الحياء والأدب، مُكتفياً بقبلات عابرة كان يسرقها منّي أحياناً. كُنت أُحاول أن أتجاوب معه مُجرّبة فعالية رغبتي، لكن محاولاتي تلك كانت تنتهي بفشلٍ ذريع، أُجاهد فيه كي لا ينكشف تشوّهي الداخلي، مُستترةٌ

بشـيء من العفّة المُفتعلة. فكرت يوماً بأن تصوراتي الجنسـيّة الخاصة تُشبه إلى حدٍ ما قطع اللغز المُبعثرة (البزل)، نُثرت أمامي على طاولة العمر، وطُلب منيّ ترتيبها إذا ما أردت الحصول على كُلٍ متكاملٍ قابلٍ للقـراءة، وتخيلتنـي منكبّـة عليهـا أُرتبها مُنذ وعيـت الدنيا وحتى اليوم، لكنها في النهاية لا تكتمل، تبقى ناقصة دائماً، رُبما سرقت منها بعض القطـع، وأُخفيـت فـي دهاليـز ذاكرة تُحاول مُسـتميتة حمايتي من وجع المكاشفة الجريئة. أحياناً تلوح لي تلك القطع على شكل رؤوس مُدببة، حادة، تُمزق أنامل محاولات حلّها، فتكفّ متألمة، مُتحاشيّة المزيد من الكشف المدمي.

كُنت ليّنة مع صالح أكثر من المُعتاد تلك الليلة، وقد عزمت على استخدام كُل قُدراتي لإبقائه في حياتي كما هو: صديق لي فقط. لكنه كان مُختلفاً. كان أكثر صرامة وجديّة معي تلك الليلة.

(إما أن توافقي على الارتباط الرسمي بي، أو أن تشرحي لي سرّ تسويفك الغير مُبرّر هذا). قال، وأطرق مُتحاشياً النظر إليّ. فكرت في مخرجٍ من تلك الورطة فلم أجد سوى متاهات الكلمات أزج به فيها كعادتي، وأتركه يبحث عن الخلاص.

(رُبما كانت حاجتي لحُريّة العلاقة، أكثر من حاجتي للعلاقة ذاتها فـي الوقـت الحالـي. تحلّـى بالصبـر). أجبتـه وأنا لا أدري هل أعني ما قلته بالفعل أو أني أراوغ فقط.

(ومتى ينتهي هذا «الوقت الحالي» يا آمنة؟). سألني يائساً، وتابع: مُنـذ طلبـت الـزواج منـك أول مـرةٌ قبل سـنة، وأنـتِ تؤجلين الفكرة.. هـل لـي بتوضيـحٌ مُقنـع مـن فضلك؟ صمت قليلاً ثم أردف بشـيء من الانفعال:

افهمينـي يـا آمنـة.. أنـا رجـل وأحتاج امرأة تعيش معي، وليسـت

امرأة تريد الاستمتاع بحرية العلاقة فقط... أتفهمين؟ قال كلمته الأخيرة بصوت أكثر ارتفاعاً من سابقاتها.

لـم أُجبـه، كُنـت عاجـزة عـن الكلام، وقد اسـتنفذت كُل الحيّل الممكنة معه من قبل. هممت بالانصراف وقُمت ألبس عباءتي، هرباً من تبعات حديث لا أدري أين سـينتهي بي. لم يسـتبقني كعادته، ما جعلنـي أشـعر بالفـزع مـن فكـرة أنه يئس منّـي بالفعل. نعم، لا أُحبه بالمعنى المعروف للحب، ولكني أحتاجه بشدة، وأكثر ما أحتاج هو حُبه لي، وجوده في يباب عمري الموحش. فكرت كيف لي بكسب المزيـد مـن الوقـت دون التـورط فـي متاهـات الـزواج؟ خطر لي أن أجعلـه يتقـدم لخطبتـي كـي يرتـاح قليلاً، ثُم أسـوّف في أمر الزواج، ولكني تراجعت عن الفكرة فوراً لما تذكرت بأن سـلطان سـيرفض طلبه دون أن يستشيرني حتى. لاحظ شرودي ذاك فبادر بقوله: فكري في الأمر يا آمنة. إما أن نشرع في الترتيب للزواج فعلياً، أو أن نفترق إلى الأبد.. لم أعد أستطيع المزيد من الصبر على موقف لا أفهمه. قالها وصمت قليلاً وهو يودعني عند الباب ليلتها، وأضاف هامسـاً وهو يمسـح على رأسـي بحنان، وكلماته تبدو مُترددةٌ تخشـى تفاسـير معانيهـا: حبيبتـي، لـو كُنـتِ متورطـةٌ في أمرٍ يُخيفك أن تُكاشـفيني به فلا ترددي في البوح، فلك في قلبي مكانة تسع كُل الأخطاء. قالها وسـعل قليـلاً، وكأن مـا لفظـه للتـو كان حـاداً بحيث جـرح حنجرته إثر مرور أسـنّة الكلمات عليها. تسـمّرت في مكاني ما أن سـمعت مـا تفـوه بـه، بينمـا لـم يقـو هو على المزيد من إيلامي بعد أن لاحظ ارتباكي إثر بوحه الأخير، فأشار لي بسرعة المُغادرة مُبرراً الأمر بأنه يخشى أن يرانا أحد.

لـم يتصـل بـي تلـك الليلة كعادته، طلب منّي في رسـالة هاتفية

أن أطمئنه على وصولي البيت بِرد أُرسله له. توقعت أنه سيُكلمني لاحقاً، لكنه لم يفعل، فبقيت ليلتي تلك أطرق أبواب نور الفجر أستحثه الاستيقاظ، لمّا طال سهر الليل عليّ. تقاذفتني الفِكر، ولم يعرف النوم طريقه إلى جفني المُرهقين. تساءلت في يأس مُرّ: إلى متى سأبقى هكذا؟ وما هو مصير مستقبلي وأيامي القادمة؟ ماذا أفعل لو غادرتني أُمي إلى غير رجعة؟ هل أبقى في البيت والحياة وحيدةٌ مع سلطان يعبث بمصيري كما يحلو له؟ وإن لم يكن، فما البديل؟ من بعيد لاحت لي فكرة السفر للدراسة في الخارج كمخرج وحيد يُمدد فترة تخدير قراراتي أو لنقل مصيري، إذ لا أتصور أنه يحق لي اتخاذ قرارات بخصوص أي شيء كان. فكّرت في صالح قليلاً، لكني لم أستقر على رأي مُحدد، وهو أيضاً حاصرني بشدة وضيق عليّ الخناق، ولم يكن تلميحه الأخير سوى تهديد مُبطّن لانتزاع أي شيء منّي - أو هكذا بدا لي الأمر -. لم أرتح لما قاله، إذ لم أشعر بالأمان حقيقةٌ جراء كلماته تلك، فهل يُمكن أن يكون يعني ما تلفّظ به؟ طبعاً لم يكن يُلمّح لما وقع عليّ بالفعل، فلا شيء يدعوه للتفكير بأني قد تعرضت لاغتصاب أو ما شابهه. لعلّه ظنّ أني قد فرطت في نفسي مع رجلٍ آخر وأخشى انكشاف الأمر بالزواج منه، فأراد أن يعرف الحقيقة كي يتسنّى له مُغادرتي وهو مُرتاح، ففي النهاية صالح ليس ملاك، ولا أتصوره يقبل بزوجةٍ مُستخدمة من قبل رجل آخر. على كُل حال يبقى ظنّه ذاك -إن صح- أشرف لي من أن يكشف سرّي الحقيقي، وفضيحة أخي. أُفضّل أن يظنني قد عبثت مع رجل، على أن يعرف أني قد عُبث بي ومن قِبل أخي أيضاً. عند هذا الحد فكّرت أنه لا بُد لي من الخلاص من صالح، ولو مؤقتاً، بعد أن أثقل كاهلي بالضغوط، ولكني أبقيت الفكرة نائمة

في صدري، فلا داعي لإيلامه واستثارته بإعلان أمرٍ كهذا. لم يكن الاختيار هيّناً عليّ لكنه لم يترك لي خياراً آخر.. وشيئاً فشيئاً ابتعد كلانا عن الآخر حتى انقطعنا إلا من بعض تواصل كرسالته التي وصلتني قبل قليل. فكرت في أن أرد عليه ولكني تراجعت خشية أن يقوم بالاتصال بي بعدها.. لذا ضبطت هاتفي المحمول على وضع الصامت واستسلمت للنوم.

* * *

(11)

خف إرهاقي الجسدي، وكذلك خفت حِدّة توتري التي لازمتني طوال الأمس، بينما لم يحمل لي الصبح أي جديد يمكن أن اتكئ عليه ليحفظ لي حال الهدوء النسبي التي غمرتني في الصباح.. أفقت بهدوء، رافضةٌ صخب زقزقة عصافير الأمل، مُتعلّقةٌ بالرتابة الآمنة. مؤخراً صارت تعتريني حالة غريبة، فما أن أفتح عيني صباحاً حتى تصيبني حالة دهشة من المكان الذي أنا فيه، وكأنني مسافر وصل البارحة فقط إلى مدينة غريبة عنه، نام ثُم أستيقظ على مكان جديد.. غير أني لم أكن مسافرة ولم يتغير مكان إقامتي منذ سنين.. فلم لم أعتده بعد؟

من مذياع أمي تصلني كلمات قصيدة شعرية..

(فرِحاً بشيء ما خفي..

كنت أمشي..

حالماً بقصيدة زرقاء من سطرين..

من سطرين، عن فرحٍ خفيف الوزن..

مرئي وسرّي معاً..

من لا يحب الآن، في هذا الصباح،

فلن يُحب!)

تشاغلت عن الكلمات.. خفت أن تجرني معها إلى فجر أحرفها الشفافة، فأجدني متورطةٌ بصبح لا شمس له.. نفضت تلك الهواجس عني وقمت لأغتسل. ثم لبست رداء العمل الأبيض مدنية جلبابي

علـى همـي، وطلـوت شـفتيّ بطيف ابتسـامة باهـت.. تذكرت أن اليوم هـو يـوم عطلتـي فعـدت أخلع ثيابـي وأبدلها وهُرعت بعدها إلى حيث أمي تُناديني برائحة القرنفل المنبعثة من إبريق قهوتها...جالستها قليلاً أرتشـف معها فنجاناً مجاملة إياها فقط، فالقهوة العربية لا تحنو على معدتـي المتعبـة، بهالهـا المُـرّ يسـري بداخلـي يؤكد مواطـن الوجع فيه يلعقها يهمهم راضياً(مازالت القروح مفتوحة).. جرعت كأس ماء علّه يمحو ما خطه الهال، ولكن أثره لم يزيد عن لحظات مروره فقط.. ليبرد الوجع قليلاً ثم يعود يعتصر أحشائي أكثر مما كان.. فكرت أن أتوقف عن شرب فنجان القهوة ذاك ولكنني عدلت عن الفكرة، فدعوات أمي التـي كانـت تُلبسـني إياهـا صباحـاً، تُلملمني، وتُغرينـي باحتمال الألم، وطيـف وجههـا الأبيـض المُتعـب وهو يحفني بامتنانه لمجالسـتي إياها يجعل أمر الألم ليس ذا قيمة مقارنة مع ما أبثه فيها من سعادة.. كانت هُدى لا تزال نائمة، دخلت إلى غرفة أمي بعد صلاة الفجر لتتابع نومها. قالت أمي أن هُدى ليسـت على ما يرام. سـألتها لم تظن ذلك؟ قالت بأنها لا تدري، إنما تشعر بقلب الأم بأن أبنتها تُخفي أمراً ما.. تأملت كلمـات أمـي ولـم أجـب بينمـا دار في خلدي نفس الهاجس فقد بدت هدى مرتبكة بعض الشيء لكنها لم تفصح عن ما بها.

(قلتي لها أن اللي في سلطان من الشراب؟).

سـألتُ أمي بتوجس محاولة الوصول لتوقع مناسـب يلائم حالة هدى النفسـية تلك، فعاجلتني أمي وهي تُشـير بكفها إلى فمها وكأنما تغلقـه: أص.. أص لا تسـمعك.. ثـم وش يفكنـا)، ثُـم أضافـت بعد أن تلفتت يميناً ويساراً لتتأكد من أن هدى لا تزال نائمة:

(لا وش يدريها.. قلت لها أن عنده التهاب في كبده وبس).

كانت الساعة قد قاربت السابعة بينما لا يزال الضوء معتماً بعض

الشيء في الخارج.. علقت لتغيير مجرى الحديث:

(غيم يمه.. على غير العادة!).

نظرت ناحية النافذة وقالت: إيه.. من أول الفجر والسحاب زين يا بنيتي.. عسى الله يسقينا..

قالتها وصمتت قليلاً مرسلة بصرها ناحية السماء، ثُم أردفت: يا الله إنك تعافي وليدي يا ربي يا حبيبي راجيتك تحفظ رجّالنا.. سندنا وعزّنا..يا كريم آمين.. ثُم خفضت بصرها نحو الأرض، وراحت تمسح دمعتين تراءتا لي في مقلتيها الحمراوين.

أنهيت إفطاري مع أمي ومعاذ الذي استيقظ للتو، بينما بقيت هدى في فراشها تغط في نوم عميق. لم تشأ أمي أن توقظها للذهاب لزيارة سلطان في المستشفى، وآثرت انتظارها حتى تستيقظ بنفسها. بدأت رشات من المطر في التساقط على خجل.. معلنة عن قدومها بصوت نقر قطراتها على أسطح المكيفات التي كانت تنقل الصوت لنا بدورها في الداخل. خرج معاذ للعب في المطر، وبقيت أرتب غرفتي. مكالمة من أسرار أتتني على هاتفي النقال، عاجلتني ما أن أجبت وكأنما ستعلمني بقيام الحرب العالمية الثالثة، قالت:

صباح الخير...عندك التليفون الثابت؟

ايه عندي.. خير إن شاء الله! وش فيك؟ أجبتها وأنا أتوقع بأنها ستثرثر عن حبيبها بندر الذي هجرته مؤخراً، وستطيل الحديث كعادتها إذا ما تكلمت عنه، وبرغم انشغالي لم أكن لأعتذر لأسرار وأصدها عن الحديث عنه بالتحديد حتى لا يفوتني أي شيء من تفاصيل حكايتها التي قضيت بنفسي عليها مؤخراً، فتواجدي في الحدث مهم للغاية للسيطرة على مجريات الأمور فيما لو خرجت إلى ما لا تحمد عقباه..

نعم، لم أملك أي حل آخر وأنا أراقب هذا المدعو بندر يسرق

أسرار منّي بعد طلاقها من زوجها، فما يدريني بأنه لن يستولي عليها بالكامل ويتركني بدون نصفي الآخر الملون «أسرار».

كانت أسرار قد بدأت بالتسرب من بين أصابعي شيئاً فشيئاً، جُنّت كعادتها عندما تقع في الحب، وصار كل وقتها وحديثها ومشاعرها واهتمامها، بل وثيابها وجمالها أيضاً، كلها صارت لبندر، بينما بقيت أنا على الهامش، تلجأ إليّ إذا ما احتاجت للتسلية في بعض الأوقات التي لا يمكنها التواجد فيها معه. أكلتني الغيرة، فبدأت بمحاولات ساذجة وواضحة أحاول تشويه بندر في عيني أسرار، كأن أتهمه بثقل الدم، والسماجة، أو أذم أسرته ومستواه الاجتماعي، وأحيانا أتعمد التركيز على نقاط ضعف شخصيته لأعرضها جليّة أمام أسرار..

(ليس لديه أي ثقة أو اعتداد بذاته.. راقبيه وهو يتكلم عن نفسه. ينتظر أن نؤكد له كلماته، وإن لم نفعل، يتوجه مباشرة لتغيير مجرى الحديث.. هذا بخلاف نكته الممجوجة..مُمل!).

قلت لأسرار بينما كنّا معاً ننتظر بندر في سيارته في آخر مرة رافقتهما فيها، بعد أن نزل لشراء علبة سجائر من السوبر ماركت.

كانت تلك العبارة هي آخر محاولة غبية مباشرة سقتها لأسرار في محاولة للتأثير على مشاعرها نحو بندر، حيث انفجرت غاضبة على غير عادتها، وواجهتني مباشرة بنعتي بصفة «معقدة» إذ ربما لم تشأ أن تقول لي بأني أغار منها ومنه ومن حبهما. ألجمني هجومها الذي بدا لي مختلفاً تماماً عن كل توقعاتي، فصمت أمامها منذ ذلك اليوم وحتى الآن، لكن موقفها ألهب نيراني لتشتعل أكثر فلم يكن أمامي أي خيار سوى الاحتراق بها أو توجيهها نحو أي شيء آخر تلتهمه.. وفكرت كثيراً وكثيراً حتى توصلت إلى الحل الأمثل: لن تكرهه أسرار إلا إذا فعل هو بذاته لها شيئاً مثيراً للكره! ومن هناك أتتني الفكرة، التي

حكت أطرافها بعناية تامة وألبستها أسرار، لتنزع عنها بندر إلى الأبد. «نوال» أخصائية التخدير الساذجة، التي قاربت الثلاثين حسب قولها، وتعدتها بكثير حسب رأيي، ولا زالت آنسة تبحث عن حلم الحب والزواج. شاعت حكايات وشائعات كثيرة عن نوال بين الزميلات في المستشفى حتى أن بعضهن بالغن في وصف حالتها فقلن بأنها أحيانا تسرق بعضاً من «المورفين» الخاص بالمرضى أو «الفاليوم» لتريح بها مزاجها الخاص، وهن يشرن في معرض الكلام إلى خيباتها العاطفية التي أدت بها إلى تلك الحالة. لا أدري عن صحة تلك الشائعات ولم تكن تهمني كثيراً، المهم أنها شخص ملائم لتنفيذ خطتي.. تقربت منها أكثر أثناء حضورها لإعداد بعض المريضات للعمليات، وترددت إليها بفنجان قهوة دعوتها إليه في مقهى المستشفى، أسقيها معه بعض الكلام المغري عن بندر، أخبرتها بأنه صديق لإحدى زميلاتنا في المستشفى.. وكنت غاية في الحذر حتى أضمن عدم خسران أسرار مستقبلاً فيما لو خرجت الأمور عن سيطرتي، فأوحيت لنوال بأن بندر لم يجد في صديقته الحالية كل الصفات التي تروقه ولكنه اعتادها فقط، وأنه لو وجد أخرى أفضل فإنها ستنعم في جنّة حبه وغرامه.. قلت ذلك لها وتركتها تستوي على نار هادئة، وفي الآن ذاته عملت جاهدة على تغيير وجهة نظر أسرار عن مشاعري تجاه بندر، لدرجة أشعرتها بالذنب ودفعتها إلى أن تحضر لي هدية مصحوبة ببطاقة تعتذر فيها عما بدر منها تجاهي في ذلك اليوم لما نعتتني بالمعقدة. وفي النهاية أثمرت خططي، عندها ألقيت بالقنبلة لنوال:

(تصوري، بندر على وشك أن يخطب صديقته!).

لم يكن ما قلته حقيقياً، ولكنه وفى بالمطلوب. تغيرت قسمات نوال والتي على ما يبدو كانت قد بدأت ترسم قصراً من رمال خيالها،

بينما أتاها الخبر كموجة طائشة ابتلعت ذلك القصر الجميل. بدا عليها الامتعاض فكيف يضيع منها حلم بندر بعدما صار قاب قوسين أو أدنى من إمكانية التحقق..

(عندك رقمه؟) سألتني باندفاع مباشر دون أي تحفظات، وقد احتقن وجهها جراء الانفعال.

(لا ياختي، حدّ الله ما بيني وبين التفريق بين الأحبة.. خويته صديقتي، لا تحرجيني).

أصابتها خيبة أمل بانت على ملامح وجهها التي تراخت فجأة وكأنما ستسقط قطعاً على الطاولة الواقعة بيننا. أدركت أن الضحية قد استوت، وأن الوقت صار مناسباً لتنفيذ الشق الثاني من الخطة، خاصة وهي على هذه الدرجة من الاندفاع.. تشاغلت عنها وأنا أقلّب في هاتفي المحمول ورحت أقرأ لها رسالة بعثها لي بندر في إحدى الليالي وهو يتحدث عن حبه لأسرار.. علقت بعدما أنهيت قراءة الرسالة:

(يا حظها! هذا وهي ما ملت عينه أجل لو ماليتها وش بيصير..)، ثم وضعت هاتفي المحمول على طاولة المقهى وأخبرتها بأني سأتصل بالجناح للاطمئنان بأن هناك من يغطيني حتى أعود.

ابتلعت نوال الطعم، وما هي إلا ثواني تواريت فيها عنها لأرقبها تقلب هاتفي على عجل وتنقل رقم بندر منه. أعطيتها الوقت الكافي اللازم لتتم الأمر على مهل وعدت بعدما كان كل شيء قد انتهى.. ثرثرت نوال يومها عن أمور كثيرة أجزم بأنها هي ذاتها لم تدرِ عن ماذا تحدثت، ومررت لها كل ما قالته، لعلمي بأنها تواري بحديثها ذاك الحديث الآخر الذي راح يثرثر في داخلها.. تململت قليلاً وهي تعدل هندامها وتلف طرحتها حول رأسها استعداداً للتوجه لداخل المستشفى.. وقالت:

(ايه.. الله يهني سعيد بسعيدة.. أقصد خويتك.. باركي لها بالنيابة عنّي).

(مـا أروعـك يـا نـوال. قلبك مثل الصفحة البيضاء.. مليان خير). أجبتها تأكيداً لتصديقي لها.. وهكذا أنهيت بكل دقة الجزء الخاص بي مـن الخطـة، وبقـي أن يسـقط بنـدر في الفخ، وهي وشـطارتها – أعني نوال – وهو وإخلاصه.. والحقيقة لم يكن بندر على مستوى عالٍ من الوفاء والإخلاص لأسرار، لذا لم تأخذ الحكاية سوى أسبوعين تقريباً وإذا بأسرار تأتيني باكية تشكو انشغال بندرها عنها، وتجاهله لاتصالاتها المتكررة ورسائلها.

فـي غرفتـي جلسـنا، وأغنيـة نجـاة الصغيـرة « لا تكذبـي» التـي أحضرتهـا متعمـدة لتُعيننـي فـي مهمتـي تتـردد كخلفيـة لحديثنا ذاك.. وعند المقطع:

أنقذتني من زيف أحلامي وغدر مشاعري..
فرأيت أنك كنت لي قيداً.. حرصت العمر أن لا أكسره..
فكسرته..
ورأيت أنك كنت لي ذنباً.. سألت الله أن لا يغفره..
فغفرته..

عنـد تلـك الكلمـات حـدث مـا لم أتوقعه فقد انهرت أنا باكية في سيل لم أتهيأ له ولم تشهده أسرار من قبل.. بينما راحت هي تواسيني وكلها امتنان لعميق تفاعلي معها.. إذا هكذا ظنتني، والحقيقة أني كنت أبكي ما فعلته بقلبها الشفاف. كنت أنعي سوءتي وفعلتي، غير أن ذلك البـكاء وتلـك الحسـرة لـم تقومانـي وقتها ولم تجعلاني أسـعى لترميم العلاقـة التـي حطمتهـا بيـدي، بلعت خطيئتي وتابعت ما بدأته، وقررت الاستمرار فيه، فوجع تأنيب الضمير كان أقل وطئاً من ويلات حرقتي

وأنا أشاهد أسرار تبتعد عنّي وتغادرني ثانية بينما لا حيلة لي ولا قوة لفعل أي شيء. وهكذا مرت أسابيع عدة حتى الوقت الحالي فترت خلالها علاقة أسرار وبندر، كما خططت ولم يبقى من شجرة حبهما سوى بضع فروع رفيعة يلزمها بعض الوقت حتى تجف جذورها وتموت من تلقاء نفسها إذا استمر انقطاع غيث ذلك الحب عنها.

من الهاتف الأرضي شرعت بالاتصال بأسرار وكلي فضول لمعرفة الأمر الخطير الذي ستسوقه لي في هذا الصباح الماطر..

(عندك أحد؟).سألتني بتوجس.

(أوه بسرعة قولي جففتي ريقي يا أسرار).

(الموضوع يخص أختك هدى.. مهيب حولك).

ارتحت قليلاً لأن الموضوع ليس ذا صلة ببندر، ولكني انشغلت من جهة أخرى لكونه له علاقة بأختي هدى، فماذا تحمل لي أسرار في جعبتها؟

أكدت لها أني وحدي.. فراحت تحكي الحكاية العجيبة التي ألقت ضوءها على عتيم التغير المفاجئ الذي ألمّ بهدى.

زلت هدى إذاً. سقطت من جنتها المنتظرة إلى نار العشق.

هكذا باحت أختي بمكنونها لصديقة حكايات الصبا والغرام (البندري) أخت أسرار الكبرى، وحدها البندري كانت المستودع الأمثل لهكذا سرّ. ليس بسبب قدرتها على حفظ السرّ بل بقدر ملائمتها لتلقيه، وحتماً لم تحك لها هدى ثقة بها بعد انقطاع سنين، ولكن لكونها الأولى التي ألفت هدى على نثر ذلك النوع من الثرثرة الحمراء على مسامعها. حكت لي أسرار تفاصيل الحكاية التي حلّفتها البندري بأن تكتمها عنّي أنا بالذات، ولكن أسرار تعلم تفاصيلي الصغيرة وتعلم ضرورة إطلاعي على مثل هكذا أمر، غير أنها وبرغم ثقتها الشديدة بي

ومعرفتها بطبيعتي الكتومة أصلاً لم تبدأ السرد إلا بعد أن استحلفتني بمكانتها عندي ومحبتي لها بأن لا يخرج الأمر عن كلتينا، وبالغت في ذلك بأن طالبتني بكتمانه حتى لو باحت لي هدى بنفسها بالأمر. قالت أسرار قبل وبعد كلامها:

(مثّلي أمامها وكأنك لم تكوني على علم بالأمر، فيما لو حدثتك عنه.. أمانتك يا آمنة).

(وهل تتصورين بأن هدى ستقول لي أمراً هكذا بالأصل؟). أجبتها متعجبة. فعاجلتني بردها:

(بعد هذا الذي حدث لهدى بالتحديد لا أستغرب أي شيء كان. يا أختي ألا تفهمين؟ هدى المتدينة خانت زوجها ووقعت في الغرام! لا شيء بعد ذلك يمكن أن يكون مدهشاً أو غريباً.. صدقيني!).

اشتكت هدى للبندري من جفاف مشاعر راشد، وعلى الرغم من علمي بأن هذا الأمر أي جفاف المشاعر ليس بالجديد على هدى ولا راشد ولا أظن أنه كانت هنالك مشاعر من الأصل لتجف الآن، إلا أني توقفت عند الاستنتاج الذي تطوح لي حينها ساقطاً من علياء محرمات هدى:

«في حالة هدى بالتحديد لا يمكن أن تتصور بأن راشد جاف عاطفياً بعد كل تلك السنين إلا إذا كان هنالك مثير (غير جاف عاطفياً) يمكن عن طريقه مقارنة حالة راشد تلك به، ويجب أن يكون هذا المثير متاحاً بشكل شرعي في البداية على الأقل حتى يتمكن من شق جدار الرهبة الذي يفصل هدى عن المحرمات كلها كبائر وصغائر.. ويستدرجها إلى حبائل العشق الدافئة الرطبة!».

وأتاني الإيضاح من أسرار: الآخر كان المدرس الأربعيني الشامي الذي يعطي أبناءها دروساً خصوصية! هكذا اكتملت خيوط الحكاية

في ذهني وأنا أسترجع بعض ما قالته أسرار في مكالمتنا التي انتهت قبل قليل.. قالت أسرار وهي في أشد حالات التعاطف مع هدى:

(مسكينة أختك.. تقول إن البداية كانت لما كلمها المدرس يسأل عن راشد، فأخبرته بأنه مسافر وسيعود بعد يومين.. تقول هدى أنه كان يخاطبها بلقب: «يا ست» وتقسم بالله للبندري أختي بأن تلك الكلمة كانت بمثابة «افتح يا سمسم» لمغارة قلبها!)..

قالت أسرار، وكلها انبهار مما حدث، ثم تابعت سردها:

(تصوري يا آمنة: بكت هدى وهي تحكي القصة للبندري، وقالت مبررة أن من حقها أن تنادى بلفظ مثل هذا بدلاً من « يا هيش» أو «يا عرب» اللذان كان يناديها بهما راشد زوجها..).

أربكتني قصة هدى حتى أنها أنستني سلطان الراقد في العناية المركزة وأمي التي لم تفتأ تطالبني بالاتصال برفيق السائق ليأتي ليقلنا إلى المستشفى.. بل أن الحكاية حركت أركان الطاولة التي كانت تحمل تصوراتي لهدى، فاهتزت قليلاً ولم تستقر على حال ثابت، فلم أقدر على التعامل مع هدى كما كنت، ولم أقو على التصريح بالرؤية الجديدة التي تفضحني عادة عندما تتغير الهالة المحيطة بكياني لتُخبر الآخر بأني أنا كذلك تغيرت! لكني التزمت الصمت وفاء بوعدي لأسرار، وتجنباً لحيثيات مواقف لست جاهزة لها الآن.. غير أني فهمت معنى بصيص الحياة الذي أطل من عيني هدى لما استقبلتني البارحة عند باب الحمام، وكأنها عادت إلى تلك المتوهجة بفستانها البرتقالي الزري البراق تتراقص به كما فعلت تلك الليلة البعيدة.. وها هي اليوم تعود تفيض ليونة، وربما حباً، ولسان حالها يغني:

(كل الناس حلوين.. في عنيا حلوين..

طول ما عنيّا شايفه الدنيا.. وانت قصادي!).

دخلت غرفة أمي حيث لا تزال هدى نائمة، ورحت أتأملها بصمت.. محصية آثار التحول عليها في فضول لم يسبق أن اعتراني، وكان أن لمحت ابتسامة خفية مرتسمة على شفتيها وهي نصف نائمة، إذ بدأت بالتقلب استعداداً للاستيقاظ.. كذلك لمحت ذراعيها الناعمين وأطراف ساقيها وقد أزيل الشعر عنها حديثاً.. وكذلك أظافرها التي كانت آخر مرة قلمتها لدى المُزينة في سنوات زواجها الأولى، أراها اليوم لامعة ومهذبة وكأن هدى تستعد لاستقبال فرح غامض..وما هي إلا لحظات وتأتيني الإشارة الأكيدة التي لم أحتج بعدها إلى أي توضيحات إضافية، التفت هدى نحوى وقد استيقظت للتو، لتقول بكل دفء ومحبة:

صباحك ياسمين وجوري يا آمنة.. وحشتيني!!

* * *

(12)

ازداد هطـول الأمطـار مـع مـرور الوقـت، مـا أدى إلى تأخر رفيق السائق عن وصوله إلى منزلنا، بينما كانت أمي تغلي من الغيظ وتكيل لـي اللـوم بسـبب تأخـري فـي الاتصال به فـي الصباح. في تلك الأثناء اقترحت هدى أن ننتظرها قليلاً لتذهب معنا إلى المستشفى طالما نحن تأخرنا، مبررة الأمر بأن الطرق سـتكون مزدحمة اليوم بسـبب الأمطار الغزيرة وسيصعب عليها اللحاق بنا في وقت قصير. وافقت أمي على مضض، بينما راحت هدى تستعد بلبس ثيابها، وما هي إلا دقائق ونحن الثلاث نتراص في المقعد الخلفي لسيارة السائق رفيق، بينما تربع معاذ في المقعد الأمامي. أخبرت أمي بأن هند طليقة سلطان قد اتصلت بي قبل قليل تسأل عن رقم غرفته بنية اصطحاب إبنيه لزيارته. كنت أعلم بأن أمي لا تزال غاضبة من هند ورحليها المفاجئ، بل أنها تُرجع كل ما أصبح عليه الحال من سـوء إلى أمر مغادرة هند لسـلطان، ولكني فضلت اطلاع أمي على أمر اتصالها قبل أن تفاجأ بها في المستشـفى فيما لو التقتا. همهمت أمي ونطقت ببضع كلمات لم أتبينها لتداخلها، ثم تنهدت وقالت بصوت أكثر وضوح:

(حسبي الله على اللي تسبب في علته.. ايه لعله لين جوه عياله يستحس ويصحى.. اللهم آمين.). قالتها وصمتت وهي تغالب البكاء، وغرقت السيارة في صمتنا إلى أن اقتربنا من بوابة المستشفى. صرفت رفيـق، بينمـا توجهنـا نحـو وحـدة العناية المركزة والتي لا يسـمح فيها بالدخول لأكثر من شخصين في الآن ذاته، ولعدة دقائق فقط، شكرت

اللـه علـى عـدم اضطـراري لمصاحبة أمي إلى الداخل وبقيت في غرفة الانتظار ريثما تنتهي أمي وهدى من زيارتهما له، واستبقيت معاذ معي إذ لا يسمح له بالدخول لصغر سنه.. تذكرت هند التي ستحضر الصغيرين بعد قليل والتي رجتني أن أكون موجودة حتى أتمكن من إدخال أبنائه لزيارته بطريقة خاصة عن طريق معارفي في المستشـفى.. اتصلت بها استعجلها الحضور، فأخبرتني بأنها على وشك الوصول.

أثناء انتظاري لمحت البندري وزوجها منصور متجهين نحو وحدة العنايـة المركـزة، لحقـت بهمـا لأخبرهما بوجـود أمي وأختي في غرفة سـلطان فانضما إلينا في غرفة الانتظار ريثما يخرج من بالداخل.. بدأ القلق يعتريني خشـية أن تحضر هند وتلتقي بالبندري فتحدث مشـادة بينهمـا لا قـدرة لـي علـى تحملهـا الآن، ولكنـي لـم أملـك إلا الصبـر والانتظار.

في السنة الأخيرة وتحديداً قبل موت الصغيرة بسمة بأسابيع قليلة نشأت علاقة قوية بين أخي سلطان ومنصور زوج البندري، بدعم من الأخيـرة، والتـي اعتـاد زوجهـا علـى الاتـكاء عليها دائمـاً حتى في أتفه الأمـور، ومـا زاد مـن ضعفـه تجاهها وتحكمهـا فيه الأمـر الذي أخفاه عنها ولم تكتشفه إلا في ليلة الزفاف، إذا كان يعاني من العرج بسبب تشوه خفيف في إحدى قدميه، بينما أخفى الأمر عنها ولم تلحظه إلا بعد أن أصبحت زوجة له. لم تقبل الأمر، واعتبرته غشاً وتآمراً عليها، فثارت عليه وقررت منذ ذلك اليوم أن لا تناديه إلا باسم عريج وكأنما تعاقبـه بفضـح سـرّه علـى المـلأ فـي كل وقـت تدعوه بالاسـم نكاية به علـى تسـتره علـى عرجـه، وكان هـو مهيئـاً لتلك السـيطرة والتحكم إذ كان بطبيعته خجولاً ومنطوياً على ذاته وضعيف الشخصية بعض الشيء فكان أن مال بكل ضعفه ليستند على البندري زوجته، ما أتاح لها مجالاً

أكبر للتسيير مجريات الأمور. لكن تلك الحال لم تعد تعجب البندري التي ملت من التصاقه الدائم بها، خاصة بعد أن ازدادت مسئولياتها ومهامها بعد أن فتح لها مشغلاً تشرف عليه وتبيع فيه بعض أدوات الزينة والكماليات النسائية في محاولة منها لجذب أمها للعمل معها وهجر بقشتها المتنقلة التي كانت تشعر البندري بالخزي والنقص. انشغلت الأخيرة عن زوجها بل وصارت تشعر بأن تواجده الدائم أمر يثقل كاهلها، ويحد من حركتها وتنقلها والتي كانت ضرورية بالنسبة لها حيث تنوي التوسع في العمل وفتح المزيد من الفروع للمشغل، فصارت تدفعه لاتخاذ أصدقاء يمضي وقته معهم. ولما لم يكن يملك تلك الجاذبية في الحضور إضافة إلى إفراطه في شرب الخمر وخروجه عن الحد المعقول الذي يمكّن أصدقاءه من تحمله ومنادمته فكان أن تسرب الأصدقاء من حوله شيئاً فشيئاً، إلى أن وجد نفسه وحيداً إلا من البندري، والتي حارت في الأمر، ولم تجد مخرجاً أفضل من جر صديق جديد له، وكان سلطان أخي هو الخيار المتاح وقتها فبدأت في التقرب من زوجته هند والتي كانت بدورها زبونة خاصة في مشغل البندري، وشديدة الانبهار بالثروة المغرية التي تمثلت لها في مشغل البندري وأساور الذهب التي كانت تزيّن ذراعيها. راحت البندري تثرثر على مسامعها وتحكي لها قصص الثروة الموعودة التي تنتظرها وتغريها بأن أبواب الرزق ستفتح في وجه سلطان فيما لو تقرّب من منصور وتعلّم منه كيف يكسب رزقه، بل ووعدتها بأن تقنع منصور بأن يبحث لسلطان عن وظيفة جيدة لدى الشيخ الذي يعمل عنده ولكنها اشترطت بعض الوقت ليتعرف فيه زوجها على سلطان ويتأكد من قدرته على العمل لدى الشيوخ، وبدورها هند أصابتها حمى الطمع فراحت تدفع سلطان نحو منصور ليرافقه ويتعلم منه، والحقيقة لم يكن

سلطان يحتاج جهداً كبيراً، إذ كان يجد في بيت منصور كل ما يلزمه لتمضية وقته في أفضل حال. أخبرتني أسرار بتفاصيل تلك السهرات، والتي لم تكن هند تعلم الكثير عنها في بداية الأمر، إذ كانت تظنهما يقضيان الوقت في معاقرة الخمر فقط، وهذا لم يكن بالأمر الجديد عليها فلم تبال كثيراً، خاصة وهو في طريقه نحو المال.. تقول أسرار بأن البندري كانت تتعمد إخلاء المنزل لهما في بعض الليالي بينما تكون على علم بقدوم نساء غريبات إلى البيت، ولكنها تغض الطرف عن ما يحدث لعله يكون سبباً في انشغال زوجها عنها، وما زاد من عدم مبالاتها بالأمر كونها لم تشعر بأي انجذاب عاطفي نحو زوجها منصور منذ ارتباطها به، ما دعاها لإتاحة المجال واسعاً أمامه علّه يخفف من التصاقه الدائم بها، حتى أنها أحياناً تضطر إلى المبيت في منزل أهلها كي تمكنهم من الاستمتاع بالسهرة كاملة دون أن يقلقوا من أمر حضورها المفاجئ..قالت أسرار واصفة الحال، وأردفت هامسة: في البداية لم أكن أعرف لماذا كانت تفعل ذلك، ولكن مع الوقت اتضح لي بأن البندري أيضاً لديها شئونها الخاصة التي كانت تحتاج فيها إلى الخلوة وصفاء الذهن. صمتت أسرار قليلاً بينما بدا التوجس واضحاً على محياها، ثم تابعت وكأنما تُدافع عن فكرة سيئة ربما أوحت بها دون أن تقصد: (البندري سنعة.. مهيب لم العلوم الشينة، بس ياختي رجلها عومه يطفش اللي ما يطفش..) عادت أسرار للصمت ثانية ثم تابعت حديثها ذلك اليوم بقولها:

في بعض الليالي كانت تعود إلى منزلها قرابة الفجر متسللة من الباب الخلفي حتى لا تزعج زوجها وضيوفه وتنهي سهرتهم إن خشوا من افتضاح أمرهم، بينما تخبره لاحقاً بأنها عدلت عن أمر البيات خارج المنزل بسبب شجار دب بينها وبين أمها أو أحد إخوتها. في

الغالب يكون منصور قد وصل لمرحلة متأخرة من السكر عند وقت عودتها فلا يدقق في الأمر، منشغلاً بمن لديه في الملحق المخصص لتلك السهرات، وأحياناً إذا كان لا يزال صاحياً تتحايل عليه البندري بشم رائحته، والتدقيق في ثيابه مدعيّة الغيرة والاهتمام به، فما يكون منه إلا أن يتيه فرحاً بما يحدث له ويتحول إلى حال أخرى غارقاً في الزهو بنفسه وهو يتوهم بأنه بدأ بتحريك غيرتها ومشاعرها ما يضاعف له نشوة السكر، حتى أنها إذا خرجت للمبيت عند أهلها ولم تعد كما تفعل في بعض الليالي يتصل بها في منتصف السهرة ليسألها هل هنالك بوادر شجار بينها وبين أي من أفراد أسرتها، فإذا ما قالت له «ربما» اتصل ببعض تلك النسوة ليحضرن فيعيش في انتظار وهم الأهمية والغيرة المفتعلة تلك..

حكت لي أسرار تفاصيل تلك الليالي نقلاً عن البندري التي كانت بدورها تسردها لأسرار للتسرية عن نفسها ولأخذ رأيها في بعض الأمور.. قصت لي أسرار قصة الآلة الموسيقية الوهمية الخاصة بمنصور والتي تظهر في نهاية السهرات.. حكت لها البندري الحكاية متندرة قالت:

(عريج غريب جداً.. يبدأ السهرة هادئاً وخجولاً، وما أن يجرع كأسين أو ثلاثة حتى تنحل عقدة لسانه، فيروح يثرثر عن أحلامه وآماله التي تنتظره، وعن ملايينه التي سيحصل عليها من المشروع الذي هو بصدد تنفيذه.. حتى أن المبالغة في التوقعات تأخذه فيروح يحكي لي كيف سيقوم بتشغيل أبناء الشيخ الذي يستعمله كسائق ليكونوا موظفين لديه في مشروعه القادم.. يحكي كثيراً عن آمال تنتظره، ثم يجرع كأسين آخرين لا يفصلهما سوى سيجارة في أحسن الأحوال، وينتقل للشكوى من صدودي عنه..). تتابع البندري بزهو حديثها لأسرار، وتضيف:

(عندما يلاحظ مللي من شكواه يكون قد وصل إلى الدور السابع في الكؤوس، فيلتقط آلته الموسيقية ويبدأ بالدندنة.. والحقيقة أن هذا الأمر قد أثار دهشتي، وحدا بي إلى التفكير بأن زوجي مصاب بمرض عقلي ربما، إذ لم يكن يمسك بآلة موسيقية حقيقية، بل أخرى موجودة في خياله فقط، ولما سخرت منه وأبديت دهشتي من الأمر، غضب منّي جداً وكاد يقلب الدنيا على رأسي ولا يقعدها، فقمت بسرعة بالتراجع عن موقفي وطيبت خاطره باعتذار سريع شارحة فيه جهلي بعالم الفن والفنانين، ورحت أشجعه بالتصفيق، وترديد المقاطع معه، والحقيقة كنت أجد صعوبة بالغة في معرفة المعزوفة التي كان يلعبها، إذ لا دلالات حسيّة توصلني إليها، ولكنه لم يكن ليتركني حائرة، ولم يكن ليضيع فرصة انسجامي تلك، فيروح يشدو بصوته الأجش بكلمات الأغنية التي تحتل المرتبة الأولى عنده، والتي لا بد أن يتغنى بها في أغلب السهرات..

ترحب بغيري وأنا الولهان...

وأنت حياتي معنيها..

فأروح أردد معه:

وأنت حياتي معنيها..

فيبتهج، ويزداد ثمالة، ولا يتوقف عن دندنته حتى تتقطع الأوتار من شدة العزف كما يخبرني لاحقاً وهو يشير إليها، فأنظر حيث يُشير وأبدي أسفي على العزف الشجي الذي سأحرم منه هذه الليلة بينما أذهب لأهيئ له طعام العشاء وأنا أعده بأننا سنذهب في الغد لنبتاع آلة موسيقية جديدة للسهرة القادمة..).

كانت أسرار تحكي لي تفاصيل حياة أختها وزوجها وهي غارقة في الضحك، وكأنما لا يعنيان لها شيئاً.. هكذا كانت دائماً، كل الأمور

لديها تحتمل المرح.

مرت سهراتهما بشكل روتيني وهند في انتظار تعيين زوجها في الوظيفة المنتظرة، ولكن ذلك لم يحدث، ومع ذلك بقيت صابرة إذ لا تملك سوى الانتظار، إلى أن حدث ما لم يحسب حسابه أياً منهم، ففي إحدى الليالي وبينما أثقل رأس سلطان الحشيش والخمر، أجرى اتصالاً غير متعمد من هاتفه المحمول إلى هاتف زوجته هند، إذ كان يضغط على أزرار جهازه الذي سقط تحته بالخطأ، ومن سوء حظه أنه كانت هنالك نسوة في السهرة.. فوقع المحظور، إذ استمعت هند للتفاصيل كلها، وقد كانت شديدة الغيرة، فجن جنونها ولم تعد تدري ما تفعل. لبست ثيابها، واستدعت أخاها وتوجهت إلى منزل منصور حيث يوجد سلطان، وكان ما كان. كادت المسألة أن تصل إلى حد الطلاق لولا تدخل أخيها الذي هدّأها ولملم الموضوع بقدر ما استطاع بعد أن أخذ وعداً من سلطان بقطع علاقته بمنصور والبندري نهائياً. غير أن هند لم تسامح البندري أبداً بل عدتها ضليعة في الأمر متهمة إياها بأنها ترغب في تخريب بيتها وسرقة زوجها منها وبذلك وقعت قطيعة بين الاثنتين بعد فترة وفاة الصغيرة بسمة بأسابيع قليلة، واستمرت حتى طلاق هند وسلطان.. أمي لم تر بأساً شديداً فيما حدث، بل أنها تعجبت لموقف هند، ووصفتها بـ(الخبلة) متسائلة كيف تفضح زوجها وتعريه أمام أهلها؟ تصورت أمي أن الحل الأمثل كان يجب أن يكون بالكتمان ومعالجة الأمر بهدوء، وربما كانت مصيبة فيما ظنّت، غير أني لم أرتح لموقفها، بل أضفته إلى سوابقها التي تصورت أنها عالجتها بالكتمان ذاته لا أكثر، ولم تتطرق لها بأي شكل من الأشكال فيما بعد. عنّي أنا نشأ في داخلي نوع من التعاطف السرّي تجاه هند إثر الموقف الذي تعرضت له، ولكني لم أستطع أن أوصله لها، إذا لا توجد أي

قنوات موائمة يمكن من خلالها تسريب شعوري ذاك نحوها، فكيف لها أن تتصور أني عبرت يوماً في بحر انحرافات سلطان ذاك، وأني كدت أغرق أو ربما غرقت بالفعل، وأن أمي وهي أمي وليست أم زوجي كانت تدعو بطريقة خفيّة للتستر على ما حدث، ولكني آثرت أن لا أتيح المجال لتعاطفي ذاك مع هند ليشق طريقه ويصل إليها، ودفنته في داخلي مع باقي ما دفن فيّ من مشاعر لا مجال لإعلانها على الملأ بأي حال من الأحوال.

كانت أمي وهدى على وشك الخروج من غرفة سلطان بعد أن مرّ على دخولهما قرابة العشرين دقيقة، وفي تلك الأثناء إذا بهند تقبل علينا. تسابق صغيريها على معانقتي، بينما كنت منشغلة بالمرأتين اللتين التقيتا للتو بعد قطيعة قاربت السنة..ظننت بأن الأمور قد هدأت بينهما بفعل الوقت، وأن الوضع سيمر بهدوء، ولكن يبدو أن مشاعر هند كانت قد تحركت قليلاً بفعل اعتلال صحة سلطان ربما، وإلا لماذا تصرفت بكل ذلك الغضب والانفعال لما قابلت البندري، بالرغم من أنها وسلطان قد انفصلا رسمياً بالطلاق مؤخراً..

(لك عين تزورينه بعد اللي سويتيه انتي وذا الرخمة اللي تسحبينه معك؟)

قالت هند ما أن وقعت عينها على البندري، بينما انسحب منصور من غرفة الانتظار ليقف عند الباب.

(أقول أذكري الله وتعوذي من الشيطان الرجيم). أجابتها البندري في ثقة تامة وهي تُشيح بوجهها عنها، فما كان من هند وهي التي على ما يبدو لم تكن قد خلعت سلطان من قلبها تماماً إلا أن قالت وصوتها يعلو ليصل لمن في الخارج:

(لا والله!... تعرفين الله يالقواده بعد!..أنتي اللي استغفري ربك

وتوبي قبل ما يسخط عليك.. سمعة بيتك فايحه عند كل الناس بس الشرهه مهيب عليك، الشرهه على الرجاجيل اللي ما ربوك).

عند ذلك الحد لم تستطع البندري السيطرة على نفسها أكثر، فخرجت منها كلمات أجزم بأنها تمنت لو يعود بها الزمن فتمحوها إلى الأبد، كلمات جرّت عليها وعلينا قيامة لم تكن لتهدأ ما بقينا حيين.. كانت تريد أن تقهر هند بأي شكل من الأشكال، فانتقت أقسى الحقائق لتلقي بها لهند التي لم تفهم ما قيل لها ولن تفهمه أبداً:

(الرجاجيل اللي ما ربوني أخير من أبو عيالك.. على الأقل ما هم مجرمين..).

(وش قصدك يا البندري؟ بالله عليك وش تقصدين؟). عاجلت البندري بدوري، وأنا في حالة ذهول راجية إياها أن تشرح ما تفوهت به للتو، أو أن تنفيه لو كانت كاذبة، ولكن لم يمهلني الوقت إذ أقبل زوجها منصور وهو في أشد حالات الغضب بعد أن سمع ما قالته، وجرها خارج غرفة الانتظار بينما كان يقول لها وهو يحاول كتم صوته المنفعل:

(لا تبلشينا يا بنت الحلال.. صكي ثمك وتعالي.. الله عليم بالأسرار ما لنا ومال الناس). ثم صمت قليلاً يلتقط أنفاسه، وتابع وهو يجرها: (الرجال بين الحياة والموت.. أسكتي يرحم والديك، ما يكفي اللي سويناه فيه قبل أمس، يمكن انه مظلوم!).

جن جنوني، وكذلك هند التي لم تفهم ما قيل، بقيت خرساء عاجزة عن إدراك ما سمعته للتو. لم تتطرق البندري إلى أي تفاصيل يمكن أن تدل على معنى ما قالته. لم تذكر سرقة، لم تذكر فجور، لم تقل بأن سلطان سلك أي سلوك محدد يمكن من خلاله تخمين ما ترمي إليه.. رحت أقلب الجملة في رأسي لأعرف ما عنته بها.. هل

ارتكب سلطان جريمة وتستر عليه منصور والبندري؟ وما هي تلك الجريمة؟ وماذا عنى منصور بقوله يمكن أن يكون مظلوم؟ سلسلة أسئلة انطلقت تباعاً كلاً منها يفضي إلى طريق مسدود، بينما لا دليل يمكنني أن اتبعه ليهديني إلى إجابات شافية، أو حتى غير شافية.. حاولت اللحاق بهما ولكنها تلاشيا في ثواني، وكأن الأرض انشقت وابتلعتهما.. بقيت على حيرتي وأنا أتبادل نظرات التساؤل مع هند، بينما لاذت هي بالصمت ولم تنطق بأي شيء، في تلك الأثناء خرجت أمي وهدى ووجدتانا على تلك الحالة، لكنهما سرعان ما انشغلتا بعناق الصغيرين ما أعطاني فرصة لاستعادة هدوئي وقد أضمرت أمراً وهو أني سأتبع البندري إلى أن توصلني لبر الفهم وتجلي غموض ما تفوهت به للتو، إما أن تنكر ما قالته أو أن تبرره بشرح التفاصيل.. كذلك قررت أن أبقي على السر مكتوماً داخلي على الأقل لا أبوح به لأمي التي ربما عطلت كشفي له بمحاولات تكتمها التي تقوم بها في كل ما يخص سلطان من أمور.

(خالتي، خلي العيال عندكم اليوم كان تبين. فرصة يوم معاذ فيه، وبامركم في الليل آخذهم). قالت هند لأمي وهي تهم بالانصراف لما لمحت تشبث الصغار بنا، بينما لم أرتح لنبرة صوت هند التي بدت وكأنما هي تفكر في شيء بعيد.. وضعت نفسي في مكانها فشعرت بأنها حتما يأكلها الفضول لتعرف ما أقدم عليه طليقها وما جعل البندري تتفوه بما قالته، فتبعتها إلى أن صرنا بعيدتين بعض الشيء عن أمي وهدى، وسألتها عما يجول بذهنها وما تنوي فعله، فأجابت بيأس أن لا حيلة لها لمعرفة الأمر فالعلاقة بينها وبين البندري سيئة إلى الحد الذي لا يمكنها من الاتصال بها والاستفسار منها.. صمتت قليلاً ثم أردفت:

(الشخص الوحيد الذي يمكنه كشف هذا الغموض هو سلطان،

وهـو كمـا تعلميـن طليقـي إضافـة إلـى أنه ينام في غيبوبة تامة ما يجعل الأمر أكثر صعوبة..). قطعت هند كلامها واسـتدركت وكأنما تذكرت شـيئاً مهمـاً: (مـا الـذي حـدث لـه بالضبط؟ أعني سـلطان.. كيف صار على ما هو عليه؟ لم أشأ أن أسأل خالتي عندما هاتفتني البارحة تبلغني بالأمر.. خشيت أن أضايقها بالسؤال).

(لا أعلم على وجه التحديد.. ولكن..).. صمتُّ قليلاً خوفاً من أثير غضبها أكثر مما هي عليه ولكنها شجعتني على الكلام بسؤالها:

(ولكن ماذا يا آمنة.. أرجوك لا تكتمي عني شيء، فرغم الطلاق يبقى سلطان أبو أبنائي، وأمره يهمني على كل الأحوال).

(بصراحة سلطان عاد إلى سهراته عند منصور منذ رحيلك تقريباً، والليلة الأخيرة قبل دخوله للمستشفى كان في بيت منصور حتى الفجر، والغالب أنه عاد مخموراً كعادته دائماً، بينما لم ينم حسـب ما فهمت لاحقاً، بل تابع الشـرب وتعاطي بعض المواد المخدرة حتى الضحى عندمـا اتصلـت بـي أمـي تبلغنـي بأنها صعدت لتتفقد حاله بينما وجدته في شـبه حالة إغماء وقد كان يتقيأ دماً ويهذي بكلمات غير مفهومة. حضـرت للبيـت تتبعنـي سـيارة الإسـعاف، نقلنـاه للمستشـفى، والباقي تعرفينه يا هند).

غرقت هند في التفكير بينما بقيت أتأملها متعجبة من حالها الغريبة تلك، لماذا هي مهتمة به إلى هذا الحد؟ هل حنّت عليه عندما مرض، أم أنهـا بالفعـل تفكـر فيـه فقـط لأنه أبو أبناءها؟. همّت بتوديعي ولكني اسـتبقيتها لأوصيها بكتمان الأمر عن أمي وهدى معللة ذلك بأن أمي متعبـة وبهـا مـن العنـاء مـا يكفيها ولا أريـد أن أزيد عليها، وأكدت لها بأني سأتابع الموضوع وأوافيها بأي تفاصيل أصل إليها.

لم تتطرق البندري لذكر أي شيء يمت بصلة للموضوع لأختها

أسرار وإلا لكانت الأخيرة وافتني به في الحال كعادتها، ما دعاني إلى توقع أنها أيضاً لم تحكِ أي شيء لهدى أختي برغم تواصلهما في الآونة الأخيرة.. كل تلك الأمور كانت إشارات خفية تدل على أحد الأمرين: إما أن تكون البندري تدعي وتكذب فيما قالته لكي تغيظ هند وترد لها الإهانة بعد أن نعتتها بكلمة «قوادة»، وهذا الاحتمال ضعيف إذ رد زوجها منصور يدل على أن هناك أمراً حقيقياً بالفعل، والاحتمال الآخر وهو الأقرب للصحة بأن سلطان أقدم بالفعل على ارتكاب حماقة تدعى «جريمة» وقد كشفها منصور وزوجته! لم ينتابني أي شعور بالاستغراب عندما تصورت انه يمكن أن يكون قد أقدم على فعل شيئاً كهذا إذ كنت أنا ضحيته في أحد الأيام عندما ارتكب أبشع جريمة أتصور يمكن أن يفعلها إنسان بأقرب الناس إليه. فكرت كذلك بحالته الصحية وما حدث له، وتساءلت كيف لم تثر انتباهي من قبل؟ لِم بقي على حالة سكره حتى الصباح؟ ولِم تناول المخدر بكميات كبيرة وهو سكران؟ هل كان ينوي الانتحار فعلاً؟ وإذا كان كذلك، فما السبب؟ وهل له علاقة بما ذكره منصور لما قال « ما يكفي اللي سويناه فيه قبل أمس.. « ما الذي فعله به منصور الليلة التي سبقت دخوله المستشفى؟ وهل لما فعله به علاقته في إقدامه على الانتحار أو محاولة إيذاء نفسه على أقل تقدير!.

في طريق العودة إلى البيت غرقت في دوامة من الفكر والتساؤلات بينما شوارع الرياض تفيض بمياه الأمطار التي سدت معظم الطرقات. كان سعد ابن أخي سلطان ومعاذ يلعبان تارة ويتشاجران تارة أخرى في المقعد الأمامي للسيارة، بينما نصطف نحن الثلاث في المقعد الخلفي، ويعتلي حجري عبدالله صغير سلطان، وهو يغط في نوم عميق. ذكرتني الأمطار بمنامي الذي تزورني فيه الصغيرة بسمة في ليلة مطيرة، وتروح

تركـض أمامـي وأنـا أتبعهـا لتصعد إلى السـطح حيث غرفتها..ثم تغيب في الظلام..

(البارحة رأيت ذات المنام).. حدثت نفسي، ثم عاودت التشكيك في الأمر: لكني لست متأكدة من أني رأيته فعلاً، هل اشتبه عليّ الأمر بسبب هطول المطر؟.. لا أدري ولكني منذ الصباح أشعر وكأن طيف بسمة يتبعني، أحس بها قريبة منّي، تكاد أنفاسها تلامسني..

أفقت من هواجسي والسيارة تقف أمام البيت، نزل الجميع بينما وقفت أحاسب رفيق، أدفع له أجرة الشهر الذي انصرم، وإذا بي ألمح طيـف صالـح مـن بعيـد يرقبني، فوجئت به، ولكني تجاهلته وكأنني لم أره، فآخـر شـيء يمكـن أن أتفـرغ لـه اليوم هـو صالح وعتابه وأحلامه الزوجية التي لا تنتهي ولا تموت.

* * *

(13)

عندما تأتي المصائب، لا تكون فراداً. هذا ما فكرت به بعد أن كلمتني أسرار في مساء ذلك اليوم لتبلغني بأن بندر اتصل بها، وأنه نادم على كل ما بدر منه ويأمل في أن تصفح عنه، واعداً إياها بأن يحضر ليخطبها ما أن تفعل. ألجمني ما قالته وهي تكاد تطير من الفرح، وأدركت بأن تلك المرأة بها من السحر والطيبة ما يقيها شر كل المكائد، حتى أنها لم تأت على ذكر أي شيء له علاقة بما فعلته بها، وبرغم حذري عندما قررت التفريق بينهما، إلا أن نوال لو فكرت بالأمر قليلاً لوجدتني أقف خلف كل ما حدث، وبالتالي يمكن أن تكون قالت ظنونها لبندر في أي وقت من الأوقات، غير أني طردت هذا الهاجس السيئ من ذهني ورحت أحاول أن أمثّل دور المبتهجة بأخبار أسرار السعيدة. أنصتُ لثرثرتها بعض الوقت وباركت لها باستسلام إذ لم أكن متفرغة تماماً للتفكير والتخطيط لما حدث لها، بينما استأذنتها في إنهاء المكالمة بحجة انشغالي بوجود الأطفال لدينا كذلك بوجود أختي هدى.

(بتروحين للبندري؟). سألت هدى وقد أخبرتني أسرار بأنهما أي هدى والبندري قد اتفقتا البارحة على اللقاء مساء اليوم، فأجابت بأنهما قد اتفقتا بالفعل على أن تلتقيان اليوم ولكن البندري اعتذرت في آخر اللحظات لانشغالها بضيوف سيحضرون لتناول العشاء مع زوجها لذا فهي لا تقدر على الوفاء بوعدها. شعرت بأن الفرصة مواتية للاتصال بالبندري خاصة بعدما قالته هدى، إذ بالتأكيد لا يوجد ضيوف ولا غيره إنما تملصت البندري من الزيارة لكي لا تضطر لتفسير ما قالته

في المستشفى قبل ساعات. هاتفتها في الحال ولم تجب، وعاودت الاتصال، وبقيت على حالها، فأرسلت لها رسالة نصية أبلغها فيها بضرورة الرد وإلا اضطررت للمجيء إليها في منزلها. لم يطل وقت انتظاري وإذا بها تتصل.

(ما الحكاية يا البندري؟ هل الموضوع خطير إلى هذه الدرجة؟) عاجلتها ما أن أجابت.

(أرجوك يا آمنة، لا تدخليني في متاهات أنا بغنى عنها، دعيني وشأني..).

(ولكن الأمر لا يحتمل،الموضوع ليس بهذه السهولة. مما أنت خائفة؟).

سألت البندري وأنا أعلم جيداً بأنها لا تقوى على كتمان السرّ فترة طويلة وأنها تحتاج فقط إلى بعض الأمان وتبوح بكل ما لديها.. فقط يجب أن أشعرها بالأمان.

(هل تعلمين بأني لم أبح بما لدي حتى لأسرار أختي؟ هل تعلمين؟ وهل يعني لك ذلك شيئاً يا آمنة؟). سألتني وكأنما تصوّر لي درجة خطورة وسرّية الأمر، فأجبتها وأنا كلّي فضول:

(نعم أعلم ذلك، وأقدر ذلك ولكن الموضوع يخص أخي يا البندري، ومن حقي أن أعرف.. أرجوك وأقسم لك على المصحف الشريف بأن أكتم الأمر مهما كان). قلت لها محاولة التأثير عليها.

(بيذبحني عريج لو درى اني قلت لك). قالت خائفة، وأدركت بأنها بما تلفظت به للتو إنما هي في طريقها إلى البوح، فشجعتها بقولي:

(أوعدك ما يدري.. بحياة أمي الغالية ما يدري أحد، لا منصور ولا غيره).

(لو تدرين وش القصة كان ما قدرتي تحلفين هالحلوف..

الموضوع أكبر بكثير مما تتصورين.. ما ينكتم لو عرفتيه). قالت البندري متشككة وهي على وشك سكب السر في جوفي. ثم أضافت وقد تغير صوتها بحيث بدا أكثر جدية:

(الكلام اللي باقوله خطير مره، صعبة ينقال في التلفون، أشوفك بكره وأعلمك بكل شي بالتفصيل).

(بكره لا.. ما أقدر أصبر يا البندري تكفين، الله يخليك باجيك الحين). أجبتها متوسلة، ولكنها رفضت رفضاً حاداً وأكدت لي بأنها مشغولة بالفعل وأنها بانتظار ضيوف زوجها القادمين للعشاء ولا وقت لديها.

كنت أعرف بأن لا ضيوف سيحضرون لزيارة زوجها ولا غيره ولكن البندري لا تزال مترددة بعض الشيء وتريد مزيداً من الوقت لترتب للأمر، غير أني كنت مضطرة للانتظار فلا خيار آخر أملكه.

كان جرس هاتف المنزل يرن، فالتقطت سماعته هدى التي تغيرت قسمات وجهها ما أن سمعت ما قاله الطرف الآخر..لم تطل الحديث، أنهت المكالمة على عجل وركضت نحوي وهي ترتجف من شدة الذعر، وقالت لاهثة:

(يا ربيه يا آمنة.. يا ربيه.. كلموني من المستشفى ويقولون سلطان مات..). قالتها بينما تهاوت واقعة على الأرض.

* * *

(14)

بقرب جدار صغير قبالة منزلنا القديمين في حي الشميسي اصطفينا نحن الأربع، أنا وهدى والبندري وأسرار.. ننتظر السمسار الذي صدّق بأننا نرغب في شراء المنزل ونريد معاينته أولاً. كان اقتراح البندري التي أرادت أن نزور منازلنا القديمة قبل أن نفترق وتتوجه كلاً منّا إلى خطها الجديد الذي قررت شقه، هي للتركيز أكثر في مشغلها وأعمالها التجارية بحيث كانت بصدد افتتاح فرع جديد للمشغل هنا في حي الشميسي، وأسرار إلى منزلها الجديد مع حبيبها بندر، وهدى إلى الطائف بعد أن قضت قرابة الشـهر أو أكثر قليلاً منذ حضرت للرياض آخر مرّة وبعد أن انتهت حكايتها القصيرة مع المدرس الشـامي بسـبب تأثرها بنهاية سلطان وملامستها للموت وخوفها من العقاب، وأنا إلى كندا لإكمال الدراسـة بعـد موافقـة أمـي أخيـراً على ابتعاثي. بـدا الحي العتيق أصغر بكثير مما كان عليه قبل سنين مضت، بينما لا تزال كل الآثار شامخة كما كانت، شاهدة على كل التفاصيل.. الأزقة الضيقة ذاتها التي كنت أركض فيها وأسرار عائدتين من المدرسة كل يوم، والمحلات الشعبية المرصوصة التي كنت أتجول فيها مع أمي وهدى أحياناً لابتياع بعض الحاجيات، ومحل الخياط محمد خان الذي نسـج بكفيه أفراح هدى البرتقالية المزركشة المتمثلة في الثياب، وبيوت الجيران التي كنا نغني عند عتباتها كل عيد:

(عطونـا عيدنـا.. عـادت عليكـم.. في حال زينة).. ربما لو صمتنا الآن قليلاً لانبعثت تلك الأصوات من جديد، فالأصوات لا تفنى أبداً.

ولجنا باب منزلنا بينما أخبرنا السمسار بأن المنزل الآخر يعني منزل الخالة دواجة قد بيع منذ زمن ولا يمكن أن ندخله، فاكتفينا بما حصلنا عليه وطلبنا من الرجل الذي بدا متشككاً في أمرنا أن يتركنا بعض الوقت لنتفحص المنزل..

برغم الغبار المتراكم على الأرضيات الأسمنتية المتشققة، وبرغم أن البيت مهجور منذ مدة طويلة إلا أن هنالك ثمة آثار حياة بدت وكأنها تسكنه.. ولمَ لا وهو البيت الذي شهد أول ضحكاتي الناصعة، قبل أن تسرقها منّي الأيام لتلونها بسوادها.. ألقيت نظرة على الشجرة الوارفة في المربع الصغير بمقدمة المنزل فإذا بها شامخة مكانها كأنما سقيت بالأمس بينما دل ترابها اليابس المتشقق على عطش طويل.. نظرت أسفلها أبحث عن خضرة أمي التي كانت هنا بالأمس، فلم أجد منها سوى رائحة ريحان حملتها لي نسمة هبت من حدائق الذاكرة.. كانت البنات يتدافعن وهن يدخلن للمنزل متوجهات للدور العلوي على أمل رؤية سطح منزل الخالة دواجة الملاصق لمنزلنا، بينما تسمرت أنا أمام الغرفة الصغيرة التي شهدت أولى غاراته عليّ. من خلال ظلام الغرفة الدامس إذ لا كهرباء بالمنزل تسمح بإيقاد المصابيح، تراءت لي قصاصات زري متناثرة على الأرض لمعت إثر سقوط خيوط الضوء المنعكسة من الماضي عليها.. دققت النظر فإذا بها تتلاشى، فلم أميز هل كانت هناك بالفعل أم أني استحضرتها من خيالي لوهلة لتكمل لي المشهد القديم.. صوت الدولاب الخشبي القديم يصرصر في أذني وأنا مسندة إليه وهو خلفي يمسكني بكامل قوته.. جفلت من الغرفة المظلمة وتراجعت إلى الوراء في خطوات سريعة محاولة اللحاق بالأخريات.. من الفتحة المنشقة في وسط سقف الدار والمطلة على الصالة الصغيرة والتي كانت أمي تسميها (بيت الحجا) أطل وجه

أسـرار الجميـل تناديـني لأصعـد فـوق حيث هـن.. تبعتها فوجدتها في غرفة السطح غارقة في الضحك تتذكر ألعاب الطفولة وتقول ممازحة وهي تشير بأصبعها الشاهد تصوبه كما الإبرة وتقول (طززززززززز) ثم تغرق في الضحك، كانت تفعل نفس الشيء وهي تلعب دور الطبيب يحقنني بالإبرة.. ضحكت هدى التي كانت الشاهدة على تلك الألعاب، ثم ما لبثت عدوى الضحك أن أصابتنا جميعاً فدخلنا في نوبة شديدة انتهت بكحة انتابتنا زادت من حدتها الأتربة المتراكمة على زوايا البيت وأرضياته.. نظرت باتجاه جدار السطح فإذا بقطعة اللبان القديمة اليابسة لا تـزال آثارهـا باقيـة ملتصقـة فـي مكانها فـي الجدار كعلامة وضعناها أنـا وأسـرار حتـى تنبهنـا إلـى وقـت بدايـة أفلام كرتـون إذا ما وقع حد الظـل علـى اللبـان، القطعـة ذاتها التي تنازعنا بشـأنها مع أخيها الصغير متهمين إياه بأنه يحركها فيما بعد إذ صارت تفوتنا الأفلام بينما الظل لم يقع بعد على قطعة اللبان.. ضربناه يومها ضرباً مبرحاً وغضبنا من البندري وهدى اللتين كانتا تدافعان عنه وتشرحان لنا أن الوقت يتغير مع الأيام ويغيّر معه وقوع الظل على ذات المكان.. لم نصدقهما إلا بعدها بسنوات بعد أن تعلمنا الوقت والساعة، وبعد أن صارت الساعة المشيرة لبداية أفلام كرتون لا تعني لنا شيئاً بعد أن فقدت تلك الأفلام سحرها الأخاذ..

(يا وحشـها وحشـاه.. الله يرحمه). قالت هدى بعد أن نزلنا إلى الدور السفلي وهي تشير إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة لغرفة الضيوف والتي اتخذها سلطان نزلاً له.. كانت زواياها مظلمة، فتصورته هناك يطل عليّ من بعيد، ووجدتني بلا وعي منّي أركض باتجاه الباب الخارجي بنية مغادرة البيت، فلحقت بي الأخريات، وبينما أنا أهم بالخروج إذا بورقة يابسة تسقط من أعلى الشجرة الوارفة وكأنها دمعة حانية تودعني،

فتمهلت قليلاً، وفتحت صنبور الماء الذي بجانبها لأسقيها لآخر مرة..
بقيت أسرار معي بينما خرجت هدى والبندري بانتظارنا في السيارة..
خيل إليّ أني سمعت صوت طقطقة جذور الشجرة تعزف لي معزومة امتنان، ودّعتها بنظرة أخيرة وأغلقت الصنبور وخرجت.

* * *

(15)

مساء اليوم الرابع لدفن سلطان سقطت آخر أوراق التوت التي كانت تواري سوأته، فانكشف عارياً بعد أن غطاه التراب. كان البيت قد خلا من المعزين إلا من بعض المقربين جداً كبعض أقارب أمي، وجاراتها والخالة دواجة وبناتها، بينما أنصرف الرجال كلهم إذا لم يكن هنالك رجل في البيت يلزمهم البقاء معه. توسطت أمي النساء المنشغلات بصب القهوة وتبادل الأحاديث التي بدأت بالخروج عن أمور الموت شيئاً فشيئاً.. كانت أمي باقية على حال الحزن ذاتها، وإن خف بكاؤها بعض الشيء، إلا أنها لم تستسلم بعد لحقيقة رحيل رجلها الأخير الذي جاهدت سنيناً لتصنع منه تمثال ستر وقوامه تباهي به أمام الناس، وتدفع به سياط ألسنتهم التي لا تكف عن الحديث بالسوء إذا لم تجد رجلاً يغلق أبواب ذلك السوء عن مخيلاتهم الخصبة. في الأيام الثلاثة التي تلت وفاته كانت تنوح كما لم أرها تفعل من قبل. تصورتها تنعى ابنها، والتمثال معاً، ففي قلب مثل قلب أمي يكون للرجال مكانتان، الأولى رابطتها البيولوجية به كأم، والأخرى مكانته لديها كرمز للقوامة والحماية، وبرغم تعاطفي الشديد مع حزنها كنت مستاءة لعلمي بأنها تدرك حجم قبحه وكم جرمه الذي ارتكبه في حقي، ولكنها لم تأبه لسخطي لأني في النهاية لا يمكن أن أعوّضها بأنوثتي السالبة ربع ما يمنحها إياه ابنها الذكر القيّم على النساء.

انتحيت جانباً وتركتها تمارس حزنها بهدوء، وأنا أدرك بأن هذا

الموقف هو آخر ما ستبذله لأجله لذا لذت بالصبر والاحتمال، بينما أشرت للبندري باللحاق بي إلى غرفتي، ففعلت وقد اعتراها بعض التوجس والقلق. كنت قد انشغلت عن سرّها بشئون الموت والعزاء، لكني لم أنسه أبداً فقط فضلت الانتظار حتى يسنح الوقت المناسب للتفرغ له، بدت البندري وكأنما زال عنها بعض الخوف بمجرد موت سلطان، أو هكذا تصورت.. لم أحتج إلى أي مقدمات بعد أن أخذت هي زمام البدء بالكلام وقالت مترددة:

(أكيد تبين تعرفين السالفة.. سالفة سلطان قصدي). أضافت جملتها الأخيرة محاولة إعطاء الأمر صفة البساطة، تخفيفاً عن نفسها ربما.

(أكيد طبعاً. أنا انشغلت باللي صار وإلا ما غاب الموضوع عن بالي ولا لحظة..هاه..وش القصة، وبالتفصيل لو سمحتي لا تتركين شي ما قلتيه).

(شوفي يا آمنة: أولاً تأكدي إن الموضوع كلام في كلام يعني لا شفت ولا شهدت ولا حتى الكلام يدخل العقل، بس يوم حرتني هند زوجة أخوك.. قصدي طليقته بتهزيها بي ذاك اليوم قلت أرد لها الصاع صاعين..). قاطعتها منفعلة وقلت بغضب:

(يعني وش قصدك.. ما فيه شي وكل الكلام تأليف وتبلي من عندك؟). لم تمهلني لألفظ كلمتي الأخيرة وقالت مدافعة:

(لا انشالله. أستغفر الله من أني أقول كلام زي هذا اتبلى به على أحد. لا والله العظيم ما جاك إلا الصدق، بس قصدي إن اللي قالته لي وحدة ما أثق فيها ولا أدري إلى أي درجة هي صادقة.. همن بعد الكلام اللي قالته يا اختي ما يدخل العقل ولا يركب على بعض).

قاطعتها غير قادرة على المزيد من الاحتمال وقلت:

(أوكي ما عليك من كل هذا.. منهي هالوحدة؟ ووش سمعتي منها.. قولي..).

نظرت إليّ بنظرات ملؤها القلق والارتباك، وقالت بصوت بدا مرتعشاً بعض الشيء:

(تذكرين تشاندرا الشغالة؟). صمتت قليلاً تضع فاصلاً بين مقدمتها وما ستأتي على ذكره لاحقاً، أخذت نفساً عميقاً وأضافت:

(تذكرين يوم تضرب عن الشغل وتعيي تقعد تبي تسافر لديرتها.. أيام موت بسمة الله يقبلها..؟). قاطعتها وعيناي شاخصتان وقد تحولت كلّي إلى آذان صاغية:

(إيه أذكر أذكر.. وبعدين؟).

(تذكرين يوم خذتها تقعد عندي لين تخلص أوراقها؟...).

(إيه ياختي أذكر زين.. وبعدين.. وش سوت تشاندرا وش دخلها في سلطان؟). أجبتها بضجر إذ لم أعد قادرة على المزيد من الانتظار والكلام المبهم.

راحت البندري تحكي ما حدث بعدها وأنفاسها تكاد تتقطع إذ اعتراها شيء من التوتر والقلق لم أعهده فيها من قبل. قالت بأن الخادمة كانت في حال غير عادية، وأنها وجدتها في حالة ذعر تلك الليلة وهي منزوية تبكي في الملحق حيث عزلتها البندري عن خادمتها، ثم ذكرت بأنها -أي البندري- أكلها الفضول فراحت تحاول في تشاندرا لتخبرها ما بها غير أن الخادمة رفضت تماماً، ولكن البندري لم تيأس، وبقيت على محاولاتها تلك بل وهددتها إن هي لم تخبرها بالأمر فإنها ستضعها في مكان المتسولين لحين ترحيلها، كذلك ضغطت عليها بإبلاغها بأنها

ستخبر الشرطة عن ما حل بها، بينما ألقت لها بآخر جملة جعلت الخادمة تنهار وتعدها بالكلام، قالت لها البندري بأنها تشك في أنها قد تسببت في موت الصغيرة وتريد الهروب من البلد بجرمها، عندها انهارت تشاندرا وراحت تدافع عن نفسها، وذكرت البندري بأنها بدت صادقة تماماً في دفاعها، وفي النهاية أخبرتها الخادمة بأنها ستقص عليها كل شيء بالتفصيل في اليوم الذي يتحدد فيه سفرها، وفي المطار تحديداً، وبررت ذلك بقولها بأنها تخشى نتيجة ما ستقوله، ولا تريد الدخول في تفاصيل لا تدري إلى أين ستأخذها تبعاتها وهي الغريبة عن البلاد.. أعطتها البندري ما أرادت، بل وأنها كلفت زوجها منصور بإنهاء إجراءات ترحيلها بسرعة تشوقاً لمعرفة ما ستقوله لها، وخوفاً أيضاً من حالها التي لم تكن طبيعية.

في صالة المطار وقبل مغادرتها باحت تشاندرا بالسر:

(يوم وفاة الصغيرة، وقبل أذان الظهر بقليل، حضر سلطان مبكراً من عمله، كانت بسمة في حالة إعياء شديد، ممددة في غرفة جدتها. قامت لما رأته، وتبعته للأعلى ليعطيها خافضاً للحرارة كما أوصت والدتها هند قبل ذهابها إلى عملها في المدرسة، صعدا معاً بينما بقي أخويها الصغيرين في الأسفل مع جدتهما.. صعدت إلى السطح لأعلق الغسيل الذي انتهيت من غسله للتو). قالت تشاندرا محدثة البندري بعربية مكسرة جاهدت الأخيرة على حسب نقلها لفك طلاسمها، وتابعت البندري على لسان الخادمة:

دخلا الغرفة وما هي إلا دقائق وسلطان يخرج ليطلب منّي النزول للأسفل بحجة أنه يرغب في النوم ولا يريد أي إزعاج، امتثلت لأمره، وهبطت نازلة للدور السفلي، وانشغلت في المطبخ لبضع دقائق، فكرت بأنه قد نام غالباً، فتسللت بهدوء لأعلق باقي الملابس كي

تجف باكراً وأتمكن من كيها مساء.. كنت منشغلة بصف الثياب على حبل الغسيل بهدوء وحذر حتى لا أزعجه وإذا بي أسمع أصوات وحركة غير عادية تأتي من ناحية الغرفتين الخاصتين بسلطان وأبنائه، توقعت أنه لم ينم بعد أو أن الصغيرة تبكي لانزعاجها من المرض والحرارة، أو رفضاً للدواء، ولكن الأصوات ارتفعت بعض الشيء، والحركة زادت فخفت أن يخرج ويراني ويتهمني بإزعاجه فتسللت متراجعة إلى الوراء بهدوء لأهبط إلى أسفل، وفي تلك الأثناء وبينما أنا في أعلى الدرج هامة بالنزول، فُتح باب سلطان فتجمدت مكاني خشية أن يسمع صوت أقدامي. كان الباب الداخلي للسطح والذي يفصلني عنه شبه مغلق إلا من فرجة صغيرة بقيت مفتوحة، فلم أشأ أن أغلقه تماماً كي لا يتنبه لوجودي لعلمي بعصبيته ومزاجه السيئ الذي قد يدفعه للصراخ في وجهي إذا ما لمحني، وبقيت دون حركة حتى يعود للداخل فأتحرك هابطة للأسفل.. في تلك الأثناء نظرت من الشق المفتوح لأرى إن كان قد ذهب، فإذا به لا يزال واقفاً يواجهني ظهره بينما الصغيرة تتوسل إليه بكلمات لم أفهمها وهو يبدو وكما لو أنه يخيفها بشيء ما، كادت بسمة أن تصرخ ولكنه وضع كفه على فمها مانعاً إياها من الصراخ.. لم أفهم فحوى ما كان يدور بينهما، ولكني لمحته يتوعدها ويدفعها إلى جدار السطح، ثم رفعها وطوحها لعدة ثواني بعدها أعادها ثانية ولكنها عادت تبكي وتتوسل إليه وكأنما كان يطلبها شيئاً وهي ترفضه أو يأمرها بأمر لم تطيعه، وضعها مرة ثانية على الجدار، وكان مهتاجاً جداً، وإذا بها يختل توازنها، وتطلق يده وتغيب عن ناظري.. ذعرت تسمرت مكاني لم أقو على فعل أي شيء، أصبحت شبه مشلولة لا قدرة لي على الحركة، بل أني أصبت بالصمم ولم أعد أسمع أي شيء بعدما تناهى

إلى سـمعي صوت ارتطام جسـدها الصغير بالأرض.. أسـرع هو نحو الجدار أطل منه نحو الأسفل، ثم عاد إلى الوراء وهو في حالة ذعر شـديدة. وضع كفيه على وجهه وكأنه يغطيه بينما لم يعد قادراً على الوقوف، فاستند إلى الجدار ثم راح ينسحب هاوياً على الأرض.. في تلـك الأثنـاء شـعرت بالخطـر يهددنـي فيما لو تنبه لوجودي، فخلعت نعلي، وحملتهما بيدي، وتسـحبت بهدوء هابطة إلى الدور السـفلي، ودون وعي منيّ دخلت الحمام وأغلقت الباب على نفسي بالمفتاح بينما فتحت صنبور المياه على آخره مدعية أني آخذ حمامي.. لا أدري لـم فعلـت ذلـك.. ولكنـي تصـورت بأني يجب أن أبقى بعيدة قدر ما أسـتطيع إلى أن يمضي بعض الوقت.. قرابة الربع سـاعة مضت وإذا بصـراخ الجـدة يعلـو فـي المنـزل، وإذا بطرق شـديد يكاد يحطم باب الحمـام علـيّ.. فتحتـه وأنـا مذهولـة، ومن حسـن حظي أن الكل كان منشغلاً بحيث لم يلحظ أحد حالة الذعر التي غشتني قبل أن أعرف ما حدث على حسب ترتيب الأحداث).

كان ذلـك مختصـر مـا باحـت بـه البنـدري لـي يومهـا، نقلاً عن تشـاندرا، بينمـا أضافـت أثنـاء سـردها بضـع جمـل تعجبية لم تجد لها تفسيراً..

(كلامهـا غريـب يـا اختـي، معقـول هالحكـي؟ كيـف يسـوي ابو ببنته كذا عشانها ازعجته في النوم؟). قالت ذلك لما اجتهدت بتفسير الموقف على أنه لو كان كلام تشاندرا صحيح فإنه بالتأكيد كان غاضباً من بسمة لما أزعجت نومه.. فصرخ بها وهددها كعادته بالعنف.. ولكنها عادت لتقول:

(لا يـا اختـي مـاش مهـوب معقـول توصـل لهالدرجـة.. أي نعم سلطان عصبي، ويطلع من طوره أحياناً، بس مهما كان هذي بنته من

دمه ولحمه لا يمكن يعلقها من جدار السطح كنها ذبيحه.. لا مهوب معقول، مهوب معقول..!).

كنت ذاهلة وهي تحلل الموقف.. بعيدة تماماً عن تفسيراتها الساذجة.. فهناك وقفت أنا يوماً من الأيام، وهناك على حافة جدار الخوف هددني بسكينه حتى يضمن صمتي، وهناك امتثلت لأوامره العمر كله، لذا لم يطوحني، لم يضطر للتخلص منّي، أما بسمة فقد اختلفت عنّي كثيراً.. بسمة لم تربى بنفس الطريقة التي رُبيت بها.. ولم تكن أمها مثل أمي، وكان لها نصيب وافر من الحلوى والحب.. كانت أكبر إخوتها والأقرب إلى قلب أمها وقلوبنا جميعاً.. كانت تشعر بحبنا واهتمامنا..بالتأكيد لم تستجب له بسمة بنفس طريقتي، الأرجح أنها قالت له غير ما قلته في ذلك اليوم البعيد.. ولعلها أثارت الخوف في قلبه، وجعلته يتصور بأن أمره سينكشف فيما لو لم يزد لها كيلة التهديد.. الأكيد أن بسمة أشعرته بأنها لن تسكت، قاومت بكل ما استطاعت من قوة، ركضت، حاولت الهرب ربما، ولعلها تجرأت على الرفض، فجن جنونه، فكان منه ما كان.. قطعت أفكاري البندري وهي تقول متسائلة:

(ياختي خلي عنك مهيب صاحية ذا الشغالة.. بربرتها مهيب يم يمه.. أجل تقول انه طالع برا غرفته بالفنيله الداخليه بس.. هوه مهيب صاحيه.. بيفسخ هدومه عند بنته؟! لا لا زودتها عاد ذا السيلانيه، الله لا يردها. عسى الله يظلمها ويسلط عليها كانها باهته وكاذبة عليه.. والعالم الله انها نصابه.. أجل ذا كلام يدخل الراس!).

عملت تلك الجملة الأخيرة التي تفوهت بها البندري عمل النقطة في آخر السطر بالنسبة لاستنتاجاتي، أكدت شكوكي التي كان يمكن أن تنتابني مستقبلاً حول الموقف.. بينما تابعت البندري تحليلاتها بعد

أن لاحظت حالة الذهول التي غشتني، إذ لم أعد متواجدة معها أبداً، فراحت تحاول أن تخفف وقع كلام الخادمة عليّ بتفسيرات بدت لها أكثر منطقية.. قالت مضيفة:

(يا بنت الحلال هذي ملت من الشغل واشتهت تعود لأهلها قالت استغل موت البنية وانحاش.. عاد حنا اللي زودنا على الضعيف اللـه لا يواخذنـا..). قالـت، وتابعـت بعد أن لحظت تنبهي لما ذكرته للتو:

(قعـدت طـول ذا الشـهور وأنـا أحايـل في عريـج يفتح الموضوع معه.. ياختي دخلني الما وقلت ما هنا إلا سلطان يفهمنا وش السالفة.. بس عيا رجلي، يقول ما لنا ومال الناس، خرابيط سيلانية بنشغل عمارنا بها..بس آخر ليلة الله لا يعيد الشر، سهر سلطان عندنا وكثر الشراب هو وعريج، وعلى قول رجلي جا المطري على السالفة، وفتح الموضوع معه.. كنا حول الفجر وأنا اللي ما عاد سمعت حسّهم، طليت عليهم من دريشة غرفتي إلا وهذا أخوك الله يرحمه في الحوش لاقط شماغه وطالع.. كانت أول مره يهوشني عريج، قال الله يقطع شور الحريم.. الرجال زعل علي وطلع.. ما طاع يرد علي بأي شي، ولا كلمة.. حتى انه ما دافع عن عمره الضعيف.

والله يا اختي اني تحسفت وعريج بعد، حتى انه وقف على راس سلطان في المستشفى يستسمحه. يقول كانه يسمعني خل يرضى علي، حب راسه وخشمه وطلب منه يحلله ويبيحه.. ووعده انه بينسى كلام السيلانية كله.. وكنه ما صار..).

* * *

أكثر ما سـاءني فيما جرى كله موقفي الأخير تجاه ما سـمعته. مضـت الأيـام وأنـا متكتمـة علـى ما دار بينـي وبين البندري. بل أني

دون وعيٍ منّي أنكرت أمام البندري كل ما قالته لها تشاندرا. كنت أخشاه حتى وهو في القبر، لأن خوفي منه لم يمت معه، ولم يرحل برحيله، بقي جاثماً على صدري يهددني إن أنا تماديت وبحت بما كان. لذلك أبقيت على السرّ كما هو.. نائماً في صدري بعد أن أنجب آخر يعينه على حراسة ضعفي المستوطن، وبقيت أنا أرعى أجنة الذعر تلك التي تناسلت في داخلي تباعاً. أعانني على الكتمان كوني الوحيدة التي يمكنها حل الألغاز المبهمة التي اكتنفتها الحادثة، وحدي أنا أستطيع فهم سلطان، لأني وحدي التي خلع أمامها قناع الحمل الوديع، ولأني لم أقو على البوح منذ ذلك اليوم البعيد، فكيف بي وأنا أعاود عيش التجربة في روح بسمة الصغيرة.. كيف لي مقاومة الذعر مرتين. لا البندري ولا غيرها يستطيعون تصوّر أسباب ما فعله، فلمن أحكي، وماذا أقول؟.. ما الذي يحدو بالآخرين إلى التفكير بأنه قد يفعل ذلك بابنته؟ الطبيعي أن الأب والأخ والابن والزوج، كلهم سنابل عطف ومودة لا تؤذي أحبتها، فَلِمَ يخالف سلطان ذلك كله! ما التفسير المنطقي لفعلته فيما لو فكرت في إعلانها على الملأ؟ هل أخبرهم بما حدث لي؟ هل سيصدقونني لو فعلت؟ فكرت مراراً بالبوح لأمي على الأقل، لكن وجهها الغاضب وهي تنهر هدى في ماضي الزمان لما تحرش بها البائع في متجر الحلويات منعني من الكلام.. حرارة قرصتها التي حفرتها على فخذ هدى ذلك اليوم البعيد لا زالت تكوي وجداني، ترسل لي رسالة تحذير: أنت المسئولة، فالأفضل لك أن تخرسي وتلزمي الصمت إلى الأبد..

لكن الموقف الأخير كان عوناً قوياً لي لأُصر على الذهاب بعيداً، فرحت أتمسك بأمر البعثة كغريق يمسك بقشة، وكلي رجاء

أن توافق أمي بطيب خاطر وتدعني أغادر في سلام.. وكان لي ما أردت إذ لم تعد أمي بعد موت سلطان ذات المرأة السابقة، بدت وكأنما قد غابت عنها الحياة، ترددت قليلاً خشية أن تغضب منّي ولكن الجميع حولي شجعوني ودفعوني إلى متابعة الدراسة، والغريبة أن هدى كانت أكثر الداعمين، تغيرت هي الأخرى بعد ما حدث. لعلها أرادت أن تمنحني فرصة مختلفة للحياة، أو أنها رغبت في أن أحقق الحلم الذي عجزت هي عن تحقيقه.. قالت بأنها ستصحب أمي معها للطائف، وأغرتها بأنها ستكون في جوار بيت الله ما ساعد في دفع أمي للموافقة..

شرعت في ترتيب أموري سفري، كل شيء كان معداً ومهيئاً لرحيلي إلا قلب صالح المسكين، الذي لم يستسلم للنسيان.. اتصل بي معزيّاً، بل أنه حضر الصلاة والدفن. كان يحاول أن يعيدني بكل صدق ومحبة، ما دفعني إلى إعادة النظر في الموضوع، غير أني لم أكن جاهزة للقفز فوق كل تلك الأسرار المخفاة دفعة واحدة، كذلك لم أشعر بأني مهيئة لاتخاذ قرار كذاك الذي يطلبه منّي.. فكرت كثيراً قبل أن أصل إلى قرار، وفي النهاية استجمعت قواي ووجدت أن أفضل حل هو أن أترك له الخيار بعد أن أطلعه على كل شيء، وكنت متكئة على ظنّي بأنه سينسحب ما أن يعرف الحقيقة، غير أني لم أملك الشجاعة الكاملة لإبلاغه بها شفهياً، لذا لذت بالحرف المكتوب، وحررت له بريداً الكترونيا تعمدت أن أحتفظ بأمر إرساله حتى آخر اللحظات، احتماء بالغياب من ألم وجع قد يسحق آخر رموز المحبة في نفسي فيما لو تكاشفنا قبل أن تهدأ الأوجاع. أخبرته بأمر الرسالة التي سأبعث بها له، وسألته آخر قطرة صبر لديه، فوافق على مضض..

شهر مضى على وصولي إلى كندا حتى تمكنت من فتح بريدي الالكتروني.. وهناك نامت بين رسائلي الكثيرة رسالة واحدة تحمل وجه رجل اختلف كثيراً عن كل وجوه الرجال التي عبرت إليّ في ملامح سلطان.. هناك كتبت جملة واحدة فقط، جملة تشبه بذور الأمل التي لا تورق إلا في القلوب الممتلئة بالحب الحقيقي، جملة ربما صدقتها يوماً إذا لم تمحها رياح الجهل والخوف:

(الرياض بدونك خالية..أعمل بكامل جهدي للحصول على بعثة.. وإلى كندا تحديداً.. حيث خطيبتي هناك).

انتهت

2009/9/9 م

الرياض